مجانين العشق العربي

أحمد سويلم



اسـم الكتـاب: مـجـانـيـن الـعشق الـعـربـى.
المؤلـــف: أحــمــد ســويــلــم.
إشــراف عــام: داليــا محمــد إبراهيــم.
تاريــخ النشــر: الطبعة الأولى أغسطس 2006م.
رقـم الإيـداع: 2004 / 15096
الترقيم الـدولى: ISBN 977-14-35400-X

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي ـ المهندسين ـ الجيزة
ت: 3466434(02)-3472864(02) فاكس: 3462576(02) ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: Publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة ـ مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) ـ فـاكـس: 8330296 (02)
البريد الإلكتروني للمطابع: Press@nahdetmisr.com

مـركـز التـوزيـع الرئيسـى: 18 ش كـامـل صـدقـى ـ الفـجـالـة ـ القـاهـرة ـ ص. ب : 96 الفـجـالـة ـ القـاهـرة.
ت: 5909827 (02) - 5908895 (02) ـ فـاكـس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجانى: 08002226222
البريد الإلكترونى لإدارة البيع: Sales @nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طـريـق الحريـة (رشـدى)
ت: 5462090 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد الســلام عــارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيــع على الإنترنت: www.enahda.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

الإهداء

إلى العشاق المجانين

في كل العصور

أ.م



تمهيد

فى العشق.. والجنون

– قيل لأعرابى:

– إن ابنك قد عشِق..

قال: أىُّ بأس فى هذا؟ إنه إذا عشِق .. نَظُف.. وظَرُف.. ولطُف!

– ويقول حكيم:

أعقلُ ما فى الحب.. جنونه!

– ويقول آخر:

إن ألذَّ ما فى الحب.. الجنون!

أما الحب.. فقد أجهد الفلاسفة والعشاق والمتيمون أنفسهم فى تعريفه.. ولم يفلح منهم أحد فى الوصول إلى تعريف جامع مانع – كما يقولون – وغاية ما وصلوا إليه هو تناول صفاته.. وأحواله.. واشتقاقاته اللغوية المختلفة.

فهذا ابن حزم يبدأ رسالته (طوق الحمامة) قائلاً:

– إن الحب أوله هزل.. وآخره جد.. وهو لا يوصف.. بل لابد من معاناته حتى تعرفه والدين لا ينكره.. والشريعة لا تمنعه.. إذ القلوب بيد الله عز وجل.. وقد أحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثير!

ثم يسوق ابن حزم ثلاثين بابًا يفصل فيها علامات الحب وإشاراته وحالاته رغبةً منه فى الوصول إلى الكمال فى العشق.



ويذكرنا ابن حزم بكتاب (فن الهوى) الذى كتبه أوفيد (٤٣ - ١٨ ق.م) والذى قسَّمه إلى ثلاثة أبواب: يشرح فى أولها كيف يجدُّ طالب الهوى ساعيًا ليستولى على قلب خليلته.. وفى الثانى يعلِّمه كيف يحتفظ بحبها إلى أطول أمَدٍ ممكن.. وفى الثالث يتوجه إلى المرأة بنصائحه فيعلمها كيف توقع الرجل فى حبالها ، وكيف تحتفظ به لمدة أطول.

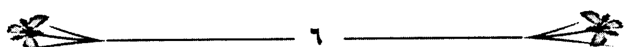
أما ابن داود فى كتابه (الزهرة) فيكشف عن جوهر النظرية العربية فى الحب..

فماهية الحب لدى ابن داود مرادفة للبحث والغوص إلى الأعماق البعيدة أو التسامى إلى القمم الشامخة.

ويمكن أن نقول: إن الصورة الشائعة للحب لدى القدماء تعتمد على مصدرين أساسيين: أولهما: الحب العذرى الذى بولغ فيه كثيرًا فيما ينطوى عليه من ضروب الحرمان.. والصدِّ والهجر.. واللقاء والفراق.. وما يحدث فيه من حالات الاكتئاب.. وكثيرًا ما تنتهى هذه الأحوال إلى الجنون.. فالموت.

أما الصورة الثانية، فمصدرها الأدب الشعبى والحكايات المتخيلة فى كتب النوادر والأخبار.. حيث تلعب الملاذ الجنسية دورًا أساسيًّا فيها.. وتمثل الرغبة فى الاستمتاع بالمحبوب الدافع الأول للمغامرة.. والتعرض للأهوال.. وأيضًا بذل المال.

ويميل بعض المفكرين إلى اعتبار قصص الحب العذرى صورة شاحبة للحب المحروم.. واعتبار القصص الشعبى صورة صارخة للحب المنهوم!




كما اهتم دارسو الحب بعلاماته: من نُحُول الجسد.. إلى الكَمَد.. فالحزن.. فالاكتئاب.. وكذا إدمان النظر.. والإقبال بالحديث.. والانبساط الزائد.. والتضايق فى المكان المتسع.. واستدعاء صوت المحبوب.. ومعرفة أخباره.. والوحدة.. والتأمل.. إلى نهاية ما يصدر عن الحواس والعقل والقلب.. فى إطار المحبوب.. وكأن المحب هنا ينظر للعالم من عيون محبوبته فحسب.

وقد شغف العرب منذ أقدم العصور بنوع العشق العفيف.. وكانوا يقدرون أصحاب هذه العاطفة.. وكانوا يُعرفون بالعشاق المتيمين والعشاق العذريين.. والعشاق الغزليين، فكان تراثهم أروع ما ورَّثه العرب للأجيال المتعاقبة.

وحينما جاء الإسلام قدَّر الحب والمحبة.. فى إطار التعفف.. فقد عدَّ الرسول ﷺ من بين من يظلهم **الله** فى ظله يوم القيامة «..... ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها.. فقال: إنى أخاف **الله**!».

بل يروى عن الرسول الكريم قوله:

– «من عشق.. وكتم وعفّ.. وصبر.. غفر **الله** له وأدخله الجنة».. وعنه أيضًا.. أنه قال:

– «من عشق.. فكتم.. وعف فمات.. فهو شهيد».

والعذريون يذعنون للحب باعتباره قضاء من **الله**.. ويصبرون على تباريحه راجين عليه الثواب، بل يرون أنفسهم مجاهدين أبطالاً.. فلا يبغون عن هذا الجهاد حِولاً.. بل يرجون منه المزيد.. فإذا ماتوا.. ماتوا شهداء..



ومن ثم يقترب العشاق على هذه الحال من حب المتصوفة.. حيث لجأ بعض الصوفية إلى الوصول إلى الذات العلية عن طريق التأمل فى الجمال الجسمانى..

ولنقرأ لابن الفارض قوله:

أيا كعبةَ الحسنِ التى لجمالها قلوبُ أولى الألبابِ لبَّتْ وحجَّتِ
بريقُ الثنايا منك أهدى لنا سَنَا بريقِ الثنايا.. فهو خيرُ هديةِ
وأوحى لعينى أن قلبى مجاورٌ حماكِ فتاقت للجمال.. وحنتِ
جمال محياك المصونُ لثامُه عن اللثمِ فيه عدتُ حيًّا كميتِ

ألا نرى هنا هذا القرب فى كلا العشقين.. العشق الإنسانى والعشق الإلهى.

وقد يؤدى الحرمان والصد إلى الجنون.. أو على حد قول مُلَيْح الهذلى:

فلم أرَ مثلى يستجنُ صبابةً
من البينِ أو يبكى إلى غيرِ واصلِ

فالجنون هنا يعنى زوال العقل أو فساده.. ثم هو يؤدى إلى الموت.. أو يؤدى إلى السلوِّ والبعاد!

والجنون له صوره.. ومؤيدو وجوده فى العشق.. فقد وصفه الكثيرون ومنهم المتصوفة وجعلوه أعلى مرتبة للعشق..

إن من معانى الجنون – فى اللغة – الاستتار .. والصوفى مستتر عن الخلق.. نافر منهم.. مشغول عنهم بتأملاته ومواجيده..

وكذلك العشاق .. يستترون عن أقوامهم.. نافرون منهم.. مشغولون بتأملاتهم ومواجيدهم..



والعشاق المجانين فى التراث العربى كثيرون.. فيهم من اشتهر بجنونه وفيهم من لم يشتهر.. لكنهم يجمعهم خيط واحد.. يحرم على العاشق عشقًا فى غير محبوبته.. وربما يحرم على نفسه شعرًا فى أى غرض آخر غير العشق.. ويغلب على العشاق المجانين الشعر.. فهو أقرب طرق التعبير عن الإحساس الصادق.. والخيال والتأمل.. وإفراغ الشحنة العاطفية فى أبيات..

ويقترب الشعر من الجنون!

فالشعر فن.. والفن لون من ألوان التمرد والثورة على المألوف والواقع.. إنه يضرب بجناحيه فى آفاق أسمى وأبعد من الأرض.. هو إذن ضرب من الجنون..

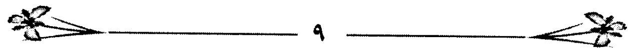
وهم يقولون: الفنون.. جنون..

لكن الشعر هو (تفريغ) نفسى لأحلام الشاعر الذى لا يستطيع أن يجسدها.. ومن ثم تتداخل دائرته مع دائرة الجنون..

ويجمع بين العشاق المجانين ذلك الحب البائس المحروم الذى يملك عليه حياته وأشعاره حتى الموت..

وهذه الرحلة التى بين يديك أيها القارئ العزيز.. تحاول أن تطوف بهذه النماذج التى أشهرها وأغفل بعضها التاريخ العربى..

وقد حرصت فى اختيار العاشقين على ثلاثة شروط مهمة: أولها أن يظل العاشق طوال حياته لا يعشق إلا معشوقته.. والثانى أن يموت دون عشقه.. والثالث أن يكون شاعرًا يسطر قصته فى قصائده.. فبغير الشعر لم يكن يصلنا عنه خبر.



ولا ندعى أنها رحلة تطوف بكل النماذج.. وإنما هى تنتقى وتختار وتصطفى وتُنقى وتُقدم فى صياغة سلسة شاعرية إلى حد كبير.. تجمع بين هؤلاء المتيمين وهؤلاء العذريين.. مؤكدين توحدهم فى الإحساس والعشق والجنون.. ولكن بصور مختلفة.. حرصنا على تنوعها بقدر الاستطاعة؛ حتى لا تتكرر الصور نفسها..

وقد حرصنا أيضًا أن يقرأها الكبار والناشئة.. فى إصرار على تقديم التراث العربى لقارئ اليوم فى بساطة وتوثيق..

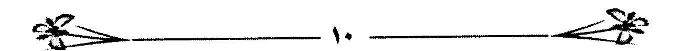
ولا يحسب القارئ أننا تعجلنا فى شىء.. فمسئولية تقديم التراث ليست بالأمر اليسير.. لهذا كان رجوعنا إلى المصادر والمراجع الموثوقة التى تروى وتختلف.. ولم نسلم بأية رواية أو أى أشعار إلا بعد أن يرتاح إليها وجداننا.. ويطمئن إليها ذوقنا وإحساسنا، وهى مصادر ومراجع كثيرة تبدأ من أمهات الموسوعات الأدبية وتنتهى عند أحدث الدراسات.. والدواوين.. والأخبار..

وبعد..

فهذا هو حصاد رحلة استغرقت جهدًا وإخلاصًا وحبًا.. وجنونًا أيضا!

والله الموفق.

أحمد سويلم





المرقّش الأكبر

وصاحبته أسمـــاء



سـكـنَّ بـبـلـدةٍ وسـكـنتُ أخـرى
وقُـطِّـعتِ الـمـواثـقُ والـعـهـودُ

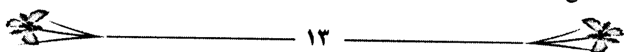
فـمـا بـالى أَفِـى ويُـخَـانُ عـهـدى
ومَـا بـالى أُصـادُ ولا أصـيـدُ

المرقش الأكبر

(١)

واحد من أقدم العشاق المتيمين الذين عاشوا العصر الجاهلى.. وضربوا مثلاً فى الحب العفيف.. ومات دون حبه.. فكان شهيدًا.. وربما تشابهت مع قصته قصص أخرى فى العصور التالية – خاصة قصة عروة وعفراء – مما يدل على أن هذا العشق كان ثمرة الحياة الاجتماعية فى الجزيرة العربية.. بما تتميز به من قسوة وطغيان.. دفع هؤلاء العاشقين إلى اختراق جدران هذه الحياة بلونٍ من ألوان العاطفة الروحية.. والحب العفيف.. والتوحد مع المحبوبة..

ومهما اختلفت أو تشابهت قصص الحب.. فيكفى أن بطلها هو هذا الإنسان العربى الذى يقتحم بقلبه ووجدانه تلك البداوة الشرسة.. فيحيلها إلى واقع جميل أو هو يبكى على فقدان هذا الواقع.. ولهذا فإن خيال هؤلاء الشعراء يختلف كثيرًا عن خيال غيرهم من الشعراء.. فى أنهم يلونونه بلون واحد: عشق واحد.. ومعشوقة واحدة.. ومن ثم فإنهم يخوضون ويكتشفون ويتوحدون.. ويقفون حياتهم كلها وأشعارهم كلها على هذا الواقع المرير..



والمرقش الأكبر أحد من قال الشعر فلقب بما جاء فى شعره.. فقد أنشد يومًا قوله:

النشرُ مسكٌ والوجوهُ دَنَا   نيرٌ وأطرافُ الأكفِّ عنمْ

والدارُ وحشٌ والرسومُ كما   رقَّش فى ظهرِ الأديمِ قلمْ

لستُ كأقوامٍ خلائقُهم   نثُّ أحاديثٍ وهتكُ حُرَمْ

فلقب بالمرقش.. نسبة إلى البيت الثانى.

أما اسمه فهو عمرو أو عوف بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة، والذى ينتهى نسبه إلى بكر بن وائل..

وهو عم المرقش الأصغر؛ هذا الشاعر الذى لم يسلم قلبه أيضًا من العشق، كما أن المرقش الأصغر عم طرفة بن العبد ..

والمرقشان كلاهما ومعهما طرفة كان لهم موقع فى بكر بن وائل وحروبها المشهورة مع بنى ثعلب، تلك الحروب التى هى من أهم أيام العرب..

وعلى الرغم من فروسية المرقش الأكبر.. وصلابة بأسه وقوته وشجاعته كان يمتلك قلبًا ليس عصيًا على العشق، بل عاش فى شبه مأساة حقيقية جمعت أطراف حياته فى قبضة واحدة.. هى الحب المستحيل..

وتجمع كتب التاريخ الأدبى أيضًا على أن جل أشعاره كانت تمتزج بالفروسية والعشق معًا لصاحبته أسماء بنت عمه عوف ابن مالك بن ضبيعة.. والذى يروى عنه ابن قتيبة أنه أسر المهلهل فى حروب بكر وتغلب.. وبقى فى إساره إلى أن مات..

وكما ينشأ الأطفال.. نشأ المرقش وصاحبته أسماء.. فى جو البادية الحار بشمسه.. ودفء عواطفه.. وبراءة نظراته..

ولم يكن العرب أهل حضر.. بل كانوا أهل رعى وزراعة وعمل.. فهم يرعون إبلهم وأغنامهم.. ويزرعون فوق الربى ما استطاعوا.. ويعملون فى بعض الصناعات التى تتيحها لهم البيئة..

ويشب الطفلان.. أمام أعين الجميع أصدقاء أحباء.. إلى أن جاء اليوم الذى دخل فيه المرقش على عمه عوف.. فرحب به وضمَّه إلى صدره:

– أهلا بك يابن أخى.. إننى معجب بك شابًّا فارسًا مغيرًا..

قال المرقش:

– أيستحق هذا الشاب الفارس أن يخطب أسماء يا عماه؟

وعلى الرغم من أن المرقش وأسماء أمام الجميع لا يفترقان.. فإن أباها قد بدا وكأنه فوجئ بهذا العرض.. وأراد أن يهرب من المرقش بحجة مفتعلة.. فقال:

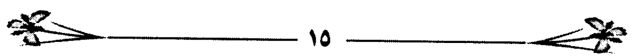
– اسمع يابن أخى.. تعلم كم أحبك وأوثرك على غيرك.. لكن أسماء ابنتى.. وأقرب أبنائى إلى قلبى.. ولن أزوجك حتى يكون لك بأس فى قومك.. ومقام كبير لا يناله غيرك..

– إنه أمر يطول يا عماه..

– هذا ما عندى يا ولدى.. ولك منى الوعد أن أحفظ أسماء لك.

(٢)

إن الغريب فى مثل هذه القصص التى تتعلق بالقلوب.. أن يعد الآباء أبناءهم.. ثم يخلفون .. لأمر أو لآخر.. ربما طمعًا فى ثراء أو مقام أو حسب أو نسب.. ثم حين يتحقق ذلك لمن وعدوهم.. لا يفعلون شيئًا من أجلهم.. وإنما يدوسون على قلوب هؤلاء الصغار فيموتون بالعشق المقدس..

لقد وعد أبو أسماء ابن أخيه المرقش بأن يحفظها له حتى يحقق البأس والمال والشرف والرياسة..

ولم يكن هذا صعبًا على فارس مثل المرقش، وإن كان يتطلب وقتًا.. ومن ثم انطلق المرقش فى رحلة طويلة إلى بعض ملوك اليمن يمتدحهم وينال منهم العطايا والشرف..

ويطول الغياب..!

وتلعب الأقدار لعبتها المتقنة!

فقد أصابت عوفًا شدة فى ماله وحياته.. ومكث فى بيته حزينًا يائسًا.. يكاد هو وأهل بيته يموتون جوعًا وحاجة..

ويساعده أبناء قومه على استحياء شديد.. فقد كان عوف ذا مكانة فى قومه.. لا يمد يده إلى أحد..

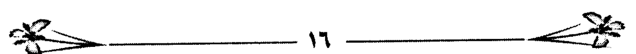
وينسى عوف حكاية المرقش وابنته فى زحام هذه الشدة العسيرة.. إلى أن جاء يوم.. وطرق بابه أحد رجال بنى مراد..

ويعلم هذا الرجل حاجة عوف إلى المال..

ويجدها فرصة سانحة ليعرض عليه مائة من الإبل مهرًا لأسماء..

ترى هل يتردد الأب وهو فى أشد الحاجة إلى المال وقد اقترب من باب داره؟ وماذا يفعل مع وعوده الماضية التى أوثقها مع المرقش؟

ولابد أن المرقش سوف يعود يومًا منتصرًا ومحققًا ما أراد له أبو أسماء، فهو فارس لا يشق له غبار.. والفارس قادر على نيل ما يريد..



لم يفكر أبو أسماء فى كل هذا.. فقد ضاق فكره.. وتحجر وجدانه.. وحدقت عيناه إلى ثراء هذا الرجل الغريب عن قومه..

رحب عوف بعرض الرجل الثرى.. وبالإبل المائة.. لابد أن باب الخير قد انفتح.. وانفرجت تلك الحلقة الضائقة عليه وعلى أهل بيته..

ويزف عوف ابنته أسماء إلى زوجها الثرى..

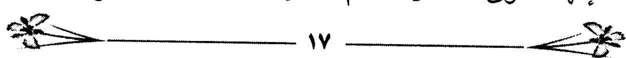
ربما أخرست التقاليد العربية لسان أسماء فى الدفاع عن حبها للمرقش فرضيت بقضاء الله.. ورضيت أن تعيش مع زوجها إرضاء لأبيها.. لكن قلبها لا يزال مع هذا الغائب البعيد.

ماذا تخبئ لك الأيام أنت أيضًا أيها العاشق الغائب.. وأنت تعيش ليل نهار مع طيف أسماء وتنشد لها دائمًا:

أغالبكَ القلبُ اللجوجُ صبابةً — وشوقًا إلى أسماءَ أم أنت غالبُه
يهيمُ ولا تعيا بأسماء قلبُه — كذاك الهوى إمرارُه وعواقبُه
لأَسماءُ همُّ النفسِ إن كنتَ عالمًا — وبادى أحاديث الفؤادِ وغائبُه
إذا ذكرتها النفسُ ظلَّت كأننى — يُزعزعنى قفقافُ ورد وصالبُه

ماذا ينتظرك أيها الفارس العاشق حينما تعود؟ هأنتذا محير القلب فى عشق أسماء.. فقد أصبحت أسماء كل شىء فى حياتك.. ونجوى فؤادك التى لا يرضى سواها.. وإنه ليذكرها فيضطرب جسده.. وترتعد أطرافه كأنما مسَّته حمى شديدة..

إنها شكوى العاشق الحالم.. مشوبة بالجنون والجراح..




(٢)

ويعود المرقش ومعه مال كثير..

عاد منتصرًا مزهوًا كما أراد له عمه عوف..

تشرق البسمة على وجهه.. يلوح بسيفه.. ينشد أشعاره فى معشوقته أسماء..

وكان أبو أسماء قد أفاق من تلك الغيبوبة الشديدة.. فأدرك خطأه وخطيئته وجمع أهله وبعض أصدقائه يشاورهم فى أمر المرقش إذا عاد..

ويطول الحوار.. وتعلو الأصوات - لكنها تخمد فى النهاية على حل غريب.. لقد اجتمع الحاضرون على ألا يخبروا المرقش بما حدث.. بل يخبروه أنها ماتت..

ولكى تتقن اللعبة.. ذبحوا كبشًا وأكلوا لحمه ودفنوا عظامه.. ولفُّوها فى ملحفةٍ وأودعوها القبر..

وها هو ذا المرقش يدخل على قومه سيدًا فارسًا صاحب بأس ومال..

- هأنذا يا عم.. لم أغب كثيرًا.. عدت لك بأكثر مما أردت..

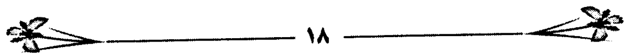
- عودة حميدة يا ولدى.. ومرحبًا بك.. لكن...!

قاطعه المرقش وعيناه تتسعان بالدهشة والتوجس:

- لكن ماذا يا عم؟

ويفتعل أبو أسماء البكاء.. ويفتعل إخوة أسماء الحزن..

- لقد ماتت أسماء يا ولدى.. وهذا أمر الخالق..



– ماذا تقول.. متى.. كيف.. أين؟

أصاب المرقش هوس شديد.. إن هذا يعنى ضياع كل شيء من هذا العاشق.. فما فائدة الحياة بعد أسماء..

– دلونى على قبرها!

وقبل أن يفيق من جنونه.. صحبه الجميع إلى قبر الكبش الذى فيه دفنوا عظامه..

قال أحدهم:

– أتريد أن تنبشه لتصدِّقنا..

لم يُعر المرقش كلامه أى اهتمام.. فقد ثبَّت عينيه على القبر.. وغاب فى أحلامه المستحيلة..

ويحاول الجميع أن يخرجوه من همه دون جدوى.. فانصرفوا.. وتركوه وحيدًا.. مع هذا القبر الموهوم..

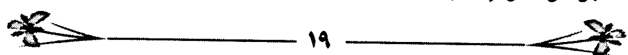
وظل المرقش يقضى يومه كله بجانب القبر.. يبكى أحلامه وعشقه.. ثم إذا حل الظلام عاد منهوكًا إلى داره لا يذوق النوم..

ويصيب المرقش نحول شديد.. وهمٌّ أشد..

وذات يوم.. كان المرقش يستند إلى القبر وقد تغطى بثوبه.. وعلى بعد قريب منه يلعب ولدا أخيه بكعبين لهما.. وهو يتابعهما.. حتى اختلف الولدان على أحد الكعبين واختصما..

وهنا قال أحدهما للآخر:

– هذا كعبى.. منحنى إياه أبى من الكبش الذى دفنوه فى هذا القبر.. وقالوا إذا جاء المرقش أخبرناه أنه قبر أسماء..



ويدرك الولد الآخر فداحة الموقف، ويحاول أن يضع يده على فم أخيه الصغير.. لكن لا جدوى.. فقد صكت أذنى المرقش هذه الكلمات.. فنهض من مكانه وكأنه أفاق من سبات عميق أو لدغته أفعى..

– تعال أيها الولد.. ماذا تقول؟

رد الولد الآخر: لا شىء يا عم.. إنه يخرِّف..

قال المرقش: اصمت أنت.. لا حاجة بى لكلامك..

وأمسك المرقش بيد الصغير.. وأخذ يداعبه ويلاطفه.. حتى سمع منه القصة كاملة.. فالصغار لا يعرفون الكذب!

وأطلق الصغير.. وغاب فى تأمل عميق.

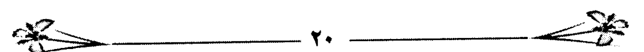
ثم بدأ يضحك بصوت عال مجنون:

– ما أغبانى! وما أشقانى بخيبتى! لن يجدى خلق الفارس فيك يا مرقش.. عليك الآن أن تعرف الحقيقة..

لم يجتهد المرقش كثيرًا فى معرفة الحقيقة.. فقومه جميعهم يعرفونها.. لكنه حينما دخل على عمه.. واجهه مواجهة شديدة.. فلم يستطع إلا أن يبوح له بكل شىء..

– لعنة الله على المال يا عماه.. أتبيعنى من أجل المال.. أتحنث فى قسمك وتخلف وعودك من أجل بريق المال؟!

ويبدأ المرقش فى مرحلة جديدة.. إنه فارس يريد أن يستعيد ما فقده فى ساحة القتال!



ويعد المرقش نفسه للرحيل..

لم يرحل وحده.. بل أخذ معه أجيرًا من غفيْلة كان عنده وزوجته الأجيرة وركب الثلاثة إلى حيث يكون المرادى - زوج أسماء.

كم أنت طويل أيها الطريق..!

لكن المرقش لا يثنيه طريق طويل.. وإن كان الأجيران قد رحلا معه على مضضٍ..

وكان الغفيْلى وزوجته يعدان طعامًا للمرقش.. لكن المرقش كان قليل الطعام.. دائم التأمل والغياب.. إن كل ما يبغيه أن يبلغ أسماء!

وقرب نجران.. مرض المرقش..

وكان لابد أن يستريح كثيرًا.. فلم يعد لديه قدرة على ركوب دابته، فنزلوا كهفًا ومكثوا فيه أيامًا..

لم يكن الكهف بعيدًا عن ديار أسماء.. لكنه الآن أمسى بعيد المنـال.. وقد فقد المرقش القدرة على الحركة والاستمرار فى الرحيل..

وينشد المرقش مأساته قائلاً:

سكنَّ ببلدةٍ وسكنتُ أخرى	وقُطّعتِ المواثقُ والعهودُ
فما بالى أفِى ويُخانُ عهدى	وما بالى أُصادُ ولا أصيدُ
ورُبَّ أسيلةِ الخدينِ بِكرٍ	منعَّمةٍ لها فرعٌ وجيدُ
لهوتُ بها زمانًا من شبابى	وزارتها النجائبُ والقصيدُ
أناسٌ كلما أخلَقتُ وصلاً	عنانى منهم وصلٌ جديدُ

وساءت الحالة الصحية للمرقش.. وعجز صاحبا المرقش عن مداواته ومساعدته.. إلى أن جاء يوم تحدث الأجير الغفيْلى إلى امرأته على مسمع من المرقش:

– كفانا جهدًا مع هذا المريض الذى لن يقوم أبدًا.. اتركيه.. فقد هلك سقمًا وهلكنا معه ضرًا وجوعًا.. ما الذى يحملنا على الجلوس هنا؟

وترد عليه امرأته:

– من الخطأ وعدم الوفاء أن نتركه هنا سقيمًا هكذا للوحوش والضوارى..

قال:

– ما حيلتى؟ لقد سئمت..

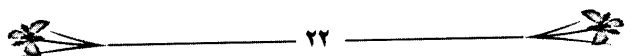
وأخذت المرأة تبكى وتندب حظها.. فهى لا تريد أن تترك سيدها فى هذه الشدة..

ويتحاور الزوجان.. ويعلو صوتهما.. فيصرخ الزوج فى زوجته:

– إذا لم تطيعينى.. تركتك وذهبت عنك..

وأدرك المرقش أن صاحبيه راحلان لا محالة.. وأنهما تاركاه وحده فى هذه القفار الجرداء..

فاقترب من رحل الأجير وكتب عليه هذه الأبيات..



يا صاحبيَّ تلَبثا لا تعجلا ... إن الرواحَ رهينُ ألا تفعلا
فلعل لُبثَكما يفرط سيئا ... أو يسبقُ الإسراع سيبًا مقبلا
يا راكبًا إما عرضَت فبلِّغَنْ ... أنسَ بن سعدٍ إن لقيتَ فحرملا
لله دركما ودر أبيكما ... إن أفلت العبدان حتى يقتلا
من مبلغ الأقوام أن مرقَّشًا ... أضحى على الأصحابِ عبئًا مثقلا
ذهب السباع بأنفه فتركنه ... يَنْهَشْنَ منه فى القفار مجدلا
وكأنما ترد السباع بشِلْوِه ... إذ غاب جمع بنى ضبيعةَ منهلا

واستراح المرقش بعد أن كتب هذه الأبيات وكأنه يوجهها إلى أخيه حرملة حينما يقرؤها..

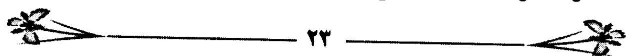
ويعود العبدان الأجيران إلى قوم المرقش.. ويخبران الجميع أن المرقش قد مات ويشك حرملة أخو المرقش فى هذا الخبر.. فأخذ يفتش الرحل.. ويقلبه حتى عثر على هذه الأبيات فقرأها.. وفهم مقصدها.

وهنا قص العبدان على حرملة حقيقة الخبر.. فقتلهما بعد أن وصفا له موضع الكهف الذى فيه المرقش.

(٥)

وكان المرقش قد استطاع بعد رحيل العبدين أن يقترب من باب الكهف ويطل على الصحراء والشمس المشرقة.

وفجأة لاحت على ربوة قريبة أغنام ترعى.. أخذت تجرى وتلعب حتى اقتربت من الكهف.. فأقبل الراعى يسوق أغنامه الشاردة فوقعت عينه على المرقش وقد ساءت حاله.



ويقترب الراعى من المرقش.. ويعرف منه حكايته.

لقد كان الراعى يعمل عند زوج أسماء..

أية مصادفة تلك التى ساقها القدر إلى هذا العاشق المجنون؟!

لابد أنه قريب من أسماء.. ولابد أن الأوان قد آن للقاء المرتقب.

دبت الدماء فى عروقه مرة أخرى.. وقد منحه الراعى بعض الطعام.. وخفق قلبه لمعرفة أخبار حبيبته أسماء.

ثم سأل المرقش هذا الراعى الطيب:

– أتستطيع يا صاحبى أن تكلم أسماء امرأة صاحبك؟

قال الراعى: لا يا سيدى ولا حتى أقترب منها.. لكن تأتينى جاريتها كل ليلة فأحلب لها عنزًا وتذهب بلبنها.

وتورد وجه المرقش.. ولمعت فى ذهنه فكرة:

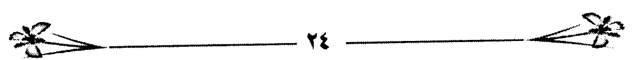
– إذن خذ خاتمى هذا.. فإذا حلبت فألقه فى اللبن.. فإن سيدتك أسماء ستعرفه.

وتردد الراعى خائفًا.. لكن المرقش طمأنه إلى أن ما يفعله هو خير له بل سوف ينال مكافأة على ذلك لم ينلها راع قط.

ويقتنع الراعى بعد حوار طويل.

فلما جاءت الجارية إلى الراعى بالقدح وحلب لها العَنْز طرح فيه الخاتم.

وانطلقت الجارية إلى أسماء وتركت القدح بين يديها وانصرفت.. فلما سكنت رغوة اللبن أخذته وشربته.. حتى قرع الخاتم ثنيتها.. فأخذته بأصابعها وحدقت إليه.. وأدركت أنه للمرقش..



وهنا استدعت الجارية وسألتها فى صراخ:

– ما هذا الخاتم؟

قالت الجارية فى خوف شديد:

– ليس لى به علم يا سيدتى.. أقسم لك.

قالت أسماء:

– إذن اذهبى إلى سيدك ودعيه يحضر حالاً..

ويحضر زوجها فى فزع شديد، فدخل عليها قائلاً:

– لم دعوتنى يا أسماء.. خيرًا؟

قالت له: ادع عبدك راعى غنمك..

فدعاه الرجل.. فقالت:

– اسأله الآن.. أين وجد هذا الخاتم؟

فقال الراعى فى براءة وصدق:

– وجدته مع رجل فى كهف قريب قال لى اطرحه فى اللبن الذى تشربه سيدتك أسماء.. فإنك مصيب به خيرًا.. ولم يخبرنى من هو.. ولقد تركته فى الكهف يشرف على الموت.

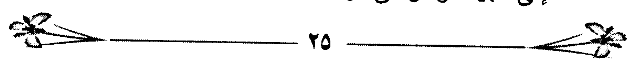
وهنا صمتت أسماء عن التعليق..

ويسألها زوجها: لمن هذا الخاتم؟ ومن هذا الرجل؟

فترد أسماء فى صوت خفيض:

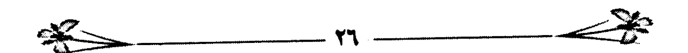
– إنه خاتم المرقش.. وأرجو أن تعجل فى إحضاره الآن وتنقذه من الهلاك.

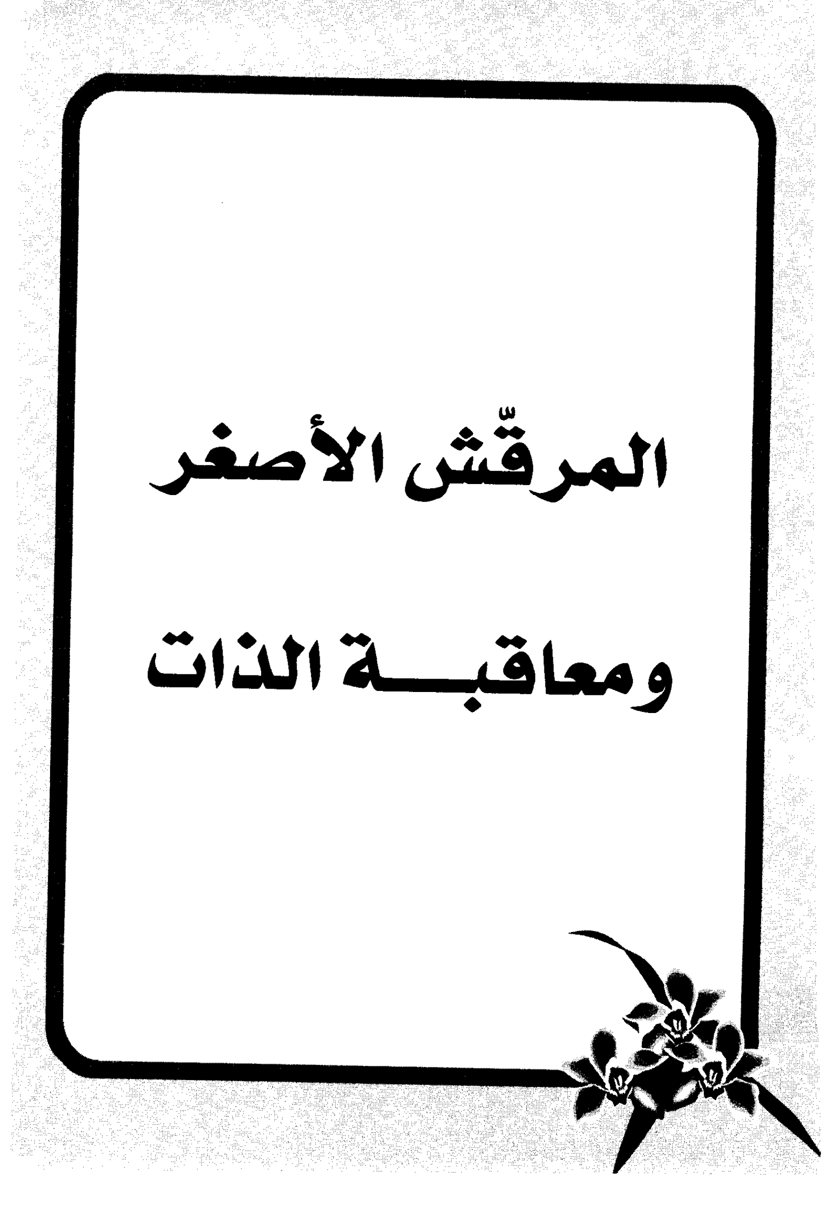
ركب الزوج فرسه وحملها على فرس آخر وسارا حتى وجداه.. فحملاه إلى البيت وهو فى نزعه الأخير.



لقد فتح عينيه على أسماء.. ودق قلبه من جديد دقات معدودة.. وجُنَّ بملمس يدها.. لكن القدر لم يسعف هذا العاشق المجنون فمات عند حبيبته أسماء ودفن فى أرض مراد.

وهكذا تطوى صفحة من صفحات العشق المجنون.. الذى يسلب العاشق عقله ووجدانه وأحلامه جميعًا.





المرقّش الأصغر ومعاقبـــة الذات

أفـــاطـــمُ إنَّ الـــحبَّ يـــعـــفـــو عـــن الـــقِـــلـــى

ويُـــجشـــم ذا الـــعِـــرضِ الـــكـــريم المجاشـــمـــا

ألا فـــاســـلـــمـــى ثـــم اعـــلـــمـــى أن حـــاجـــتـــى

إلـــيـــك.. فـــرِدّى مـــــن نــــوالك فـــاطـــمـــا

أفـــاطـــمُ لـــو أنَّ الـــنســـاءَ بـــبـــلـــدةٍ

وأنتِ بـــأُخـــرى لاتَّـــبـــعـــتُـــكِ هـــائـــمـــا

المرقش الأصغر

(١)

لعلنا نكون منصفين حينما نقرر أن قصص الحب المجنون – على قلتها – فى العصر الجاهلى كان لها مذاقها الخاص الذى قد يختلف عن مثيلاتها لدى الشعراء العذريين.

فما كانت تمليه التقاليد.. وظروف الحياة.. وكثرة الصراعات والحروب.. جعلت مثل هذه القصص تأخذ لونًا خاصًا.

كما نلاحظ أيضًا أن السبب فى قلة هذا النوع من القصص يعود إلى أسباب كثيرة، منها زحام الأغراض الشعرية الأخرى وأسبقيتها.. ومنها أيضًا أن التدوين والتسجيل فى هذا العصر لم يكونا على الشكل الذى يرصد ويقيد هذا اللون بعكس القصيدة التى كان الرواة يحفظونها من فم صاحبها ويرددونها بالسليقة على امتداد الجزيرة العربية.

وعلى الرغم من هذا كله فإن القصص الغرامية كانت فى العصر الجاهلى حقيقة ثابتة من حقائق العصر الأدبية.. مثلت واحدة من

أجناس الأدب.. بل نظر مؤرخو الأدب إليها بأكثر مما نظروا مثلاً إلى الأساطير والأمثال والأوابد والأيام.. والأخبار وغيرها.
وقصة المرقش الأصغر واحدة من تلك القصص التى لم تهملها كتب الأدب العربى.. وتكاد تجمع على تفاصيلها وأشعارها بلا خلاف كثير.

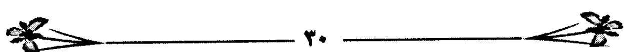
وهو ربيعة بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيْعة.. وهو ابن أخى المرقش الأكبر صاحب أسماء.. وهو عم طرفة بن العبد.. وأشعر المرقِّشَيْن وأطولهما عمرًا.. وأحد العشاق المشهورين وفرسانهم المعدودين.

وحينما يكون العاشق شاعرًا.. تذيع أخباره من خلال شعره.. فإذا جمع إلى الشعر الفروسية.. اكتملت حلقات الشهرة.. والفُتوة العربية.. ليحارب بالكلمة والسيف.. ويقدره المجتمع بأكثر من كونه شاعرًا فحسب.

وقد كان للمرقش الأصغر صولات وجولات فى بكر بن وائل وحروبها مع تغلب ويصفه معاصروه بأنه كان من أجمل الناس وجهًا.. وكان شجاعًا فَتيًّا.

وقصة المرقش الأصغر هى قصة الفارس العاشق.. حيث تحولت فروسيته من ميدان القتال إلى فروسية العاطفة الصافية.. حيث تتلون بالرثاء النفسى.. ومعاقبة الذات والنوْح والدموع والندم جميعًا.

وتبدأ القصة حينما وقعت عيناه على هند بنت العجلان جارية فاطمة بنت المنذر.. فأعجبته.. وتعلق بها قلبه.



وكان المرقش راعيًا لا يفارق إبله.. وكان يقيم عند الماء ويترك إبله ظمأى.. وينطلق إلى بنت العجلان فيقضى عندها ما يشاء من الوقت.. ويعود والشعر على فمه ينثال سهلاً لينًا معبرًا صادقًا.

أمِن رسم دارٍ ماءُ عينيك يَسْفَحُ   غدا من مُقامٍ أهلُه.. وتروحوا
أمن بنت عجلانَ الخيالُ المطرَّحُ   ألمَّ ورحْلى ساقطٌ متزحزحُ
بأطيبَ من فِيها.. إذا جئتُ طارقًا   من الليلِ.. بل فوها ألذُّ.. وأنصحُ

ويظل زمنًا يعشق هندًا.. ويقول الشعر ويتناقله الرواة هنا وهناك.

(٢)

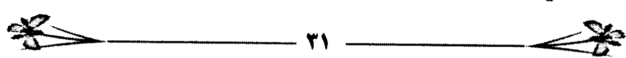
وكان من الممكن أن تستمر الأحداث هكذا سهلة رخية بلا صعاب بين الحبيبين.. فالمرقش الأصغر شاعر فارس مرموق فى قبيلته.. وهند جارية لا طائل منها ولا خوف على السادة من عشقها للمرقش.

لكنّ أمرًا ما حدث.. حول مجرى القصة.

فقد كانت فاطمة بنت المنذر تجلس فوق قصرها (بكاظمة) فتنظر إلى الناس.. وكان على هذا القصر حرس شديد لا يسمحون لأحد بالدخول أو الاقتراب من القصر إلا هند بنت العجلان.

ولاحظت فاطمة أن فتًى جميلاً دخل عند هند فبات ليلته حتى الصباح.. فأرادت أن تتقصى الأمر من هند فى الصباح.

وجاءتها هند وعليها أثر من الإرهاق.. وتجردت أمام مولاتها.. فلاحظت آثارًا فوق فخذيها كأنها آثار سياط.. فسألتها: ما هذا يا هند؟!



فأجابت: إنها آثار رجل بات معى الليلة.. من شدة حفزه إياى عند الجماع.

قالت فاطمة: أهو هذا الفتى الجميل الذى دخل بيتك عشية أمس؟

قالت: نعم يا سيدتى.. قعد عن إبله وكان يرعاها.. وبات عندى.

قالت فاطمة: أقول لك شيئًا تختبرين به وفاءه ورجولته.. إذا جاءك غدًا.. فقدمى له مَجْمرًا واطلبى منه أن يجلس عليه.. وأعطيه سواكًا.. فإن استاك به أو رده فلا خير فيه.. وإن قعد على المجمر أو رده فلا خير فيه.

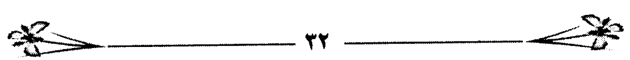
فجاءها المرقش فى الغد.. وأتت له بالمجمر وقالت له: اقعد عليه.. فأبى.

وقال: قربيه منى.. فدخن لحيته وأبى أن يقعد عليه.. وأخذ السواك فقطع رأسه واستاك به!

ثم أسرعت هند إلى فاطمة تخبرها بما جرى.. فازدادت به شغفًا وقالت: ائتينى به فى الغد.. واحتالى فى إدخاله علىَّ.

كان ابن المنذر قد رصد حرس القصر حتى لا يدخل على ابنته فاطمة رجل غريب.. وكان يرسل فى صباح كل يوم من ينظر فى أثر من دخل إليها.. ويعود إلى الملك قائلاً: لم أر إلا أثر بنت العجلان.. فيطمئن!

ماذا تفعل بنت العجلان فى رغبة مولاتها فاطمة.. وكيف تدخل عليها المرقش الأصغر.. لابد أن آثار قدميه تختلف عن آثار قدميها.



وتمكنت أخيرًا من الوصول إلى حيلة ذكية.. لا ينتبه إليها الحرس ولا خبراء الأثر.

ويظل المرقش فى اليوم التالى يرعى إبله.. ويضحك مع أصدقائه.. وكان بينهم صاحب أثير يقال له: عمرو بن مالك شديد الشبه به لا يفترق عنه إلا بغزارة شعر جسده.. وكانا قد تعاهدا على ألا يكذب أحدهما على الآخر.. ولا يخفى أحدهما عن الآخر شيئًا.

(٣)

ويجيء موعده مع هند.. فيترك إبله وأصحابه إلى بيت هند.. فتخبره أن مولاتها تدعوه إلى بيتها الليلة.

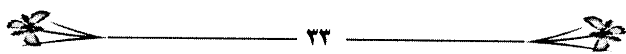
فاطمة بنت المنذر تدعو المرقش.. وحبيبته هند هى الواسطة.. وهى تفعل ذلك راضية ومتسامحة.

وتثور فى داخل المرقش أفكار متضاربة.. تنتهى أخيرًا إلى فرحة داخلية بلقاء فاطمة.. تلك التى لا يدخل إليها أحد.. لكن كيف؟

لقد حملت بنت العجلان مرقشًا على ظهرها وحزمته إلى بطنها بثوب..

وأدخلته إلى فاطمة ليبيت عندها.. ويظل طوال الليل كأنه فى حلم جميل.

وتحمله بنت العجلان فى الصباح إلى خارج القصر.. ويبعث الملك كعادته من ينظر فى آثار الداخلين إلى ابنته فاطمة.. ويعودون إليه قائلين:




– لقد نظرنا أثر بنت العجلان وهى مثقلة.

أى أن قدميها قد انغرزتا كثيرًا فى الرمل.. لثقل جسمها.

ويضحك الملك.. غير عابئ بهذا الأمر المختلف.. وأخذ الحاشية يسخرون: ربما حملت من وراء ظهورنا.. أو ربما كانت تحمل شيئًا ثقيلاً إلى سيدتها.

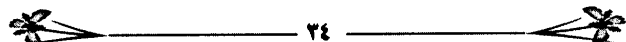
ويظل المرقش يذهب إلى فاطمة كل ليلة عن طريق بنت العجلان فيبيت عندها حتى الصباح.. حتى علق كل منهما بالآخر.. وهاما عشقًا وجنونًا.

ويسأله صديقه يومًا ما الذى تفعله يا ربيعة.. ألم نتعاهد عهدًا ألا تكتمنى شيئًا.. ولا أكتمك.. ولا نتكاذب؟

وحاول المرقش أن يراوغ صديقه.. لكن ما بينهما من عهد جعله يقص عليه الخبر.. وصاحبه يسمع فى دهشة وإثارة.

ثم قال له عمرو بن مالك: بحق ما بيننا من صداقة.. لن أرضى عنك ولن أكلمك أبدًا حتى تدخلنى على فاطمة.. فأنا أشبه رجل بك.. ولن تفطن لشىء يختلف لدىَّ عنك.. وحلف على أن يكون هذا سرًا بينهما لا يبوح به.

ولم يكن أمام المرقش إلا الوفاء بالعهد.. والإجابة لرغبة صديقه عمرو.. فانطلق به إلى المكان الذى كان يواعد فيه بنت العجلان فأجلس صديقه وانصرف.. وأخبره كيف يتصرف.. وكانا متشابهين بصورة شديدة التماثل.

وجاءت بنت العجلان فحملته كما تحمل المرقش.. وأدخلته على فاطمة وصنع ما أمره به المرقش.. فلما أراد مباشرتها وجدت شعر فخذيه فاستنكرته.. فإذا به يرعد.. فدفعته بقدمها فى صدره وقالت:

– قبح الله سرًّا عند المعيدى!

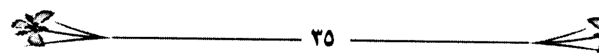
ودعت فاطمة بنت عجلان فذهبت به خارج قصرها.. وانطلق إلى حيث يوجد المرقش.. وأدرك المرقش من هيئة صاحبه أن أمره قد افتضح فعض إبهامه فقطعها.. وانطلق إلى أهله هائمًا على وجهه تاركًا إبله حياء مما صنع.. ولسان حاله يقول ندمًا وحسرة:

وإنى لأستحيى فطيمة جائعًا خميصًا وأستحيى فطيمةَ طاعما
وإنى وإن كلَّت قَلُوصى لراجم بها وبنفسى يا فطيم المَرَاجما

وهى قصيدة طويلة اشتهر بها يصور فيها وفاءه لفاطمة ويبين ما أصاب قلبه يوم الفراق ليستكمل المشهد بصورة غزلية يقف فيها عند معالم جمالها المختلفة.. ثم يصف ذكرياته معها.. ثم يستعيد مشهد الرحيل والندم.

وهو يصف فاطمة فيخلع عليها صفة الكمال.. شأن الشعراء العذريين فيما بعد الذين يرون فى معشوقاتهم كل شىء كاملاً وناضجًا وحسنًا.

وتحت وطأة التشاؤم والشعور بالندم والخيبة والإخفاق.. يستصرخ فاطمة الصفح.. وهو لا يكاد يصفح عن نفسه هو.. ويثقل على نفسه معاقبًا ذاته أن باح بسره لصاحبه.

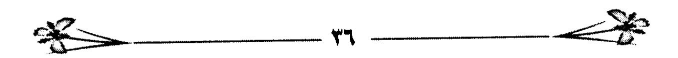


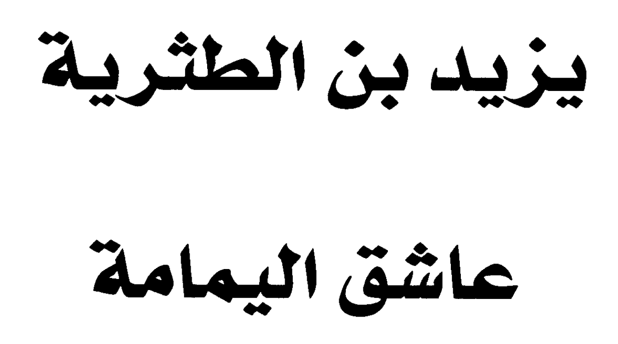
(٤)

إن قصة المرقش الأصغر قصة فريدة فى بابها وفى عصرها.. وتؤكد معنى مهمًا من معانى العشق.. فمهما باح العاشق بأسراره.. فإن هناك منطقة من الأسرار لا يجوز له أن يبوح بها.. إنها تلك المنطقة الخاصة التى يعرف هو وحبيبته تفاصيلها الدقيقة وألوانها.. وملامحها.. ولا يعرفها غيرهما..

ومهما بلغت الصداقة بين الأصدقاء.. فهى لا تسمح بهذا البوح الذى يلقى بالعاطفة فى بئر الندم والإخفاق.

وتبقى قصة المرقش الأصغر مثلاً حيًا على عقاب الذات والندم.





يزيد بن الطثرية

عاشق اليمامة



أحـــبك أطـــراف الـــنـــهـــارِ بشـــاشـــةً

وبـــالـــلـــيـــلِ يـــدعـــونـــى الـــهـــوى فـــأجـــيـــبُ

لـــئـــن أصـــبَـــحَـــتْ ريـــحُ الـــمـــودةِ بـــيـــنـــنـــا

شـــمـــالاً لَـــقِـــدْمًـــا كُـــنت وهـــى جـــنـــوبُ

يزيد

اهتم مؤرخو الأدب بهؤلاء العشاق الذين عاشوا فى بادية الحجاز.. باعتبار أن هذه المنطقة أكثر ثراء فى أحداثها وتاريخها.. على حين أهملوا كثيرًا أحداث المناطق الأخرى.

وقصتنا هذه لم تذكر كثيرًا لأنها حدثت فى بادية اليمامة.. تلك المناطق المهملة فى تاريخ العرب.. لكننا هنا نتجرد من شهرة المناطق والبوادى.. محاولين اكتشاف ما تحت القشور من ثراء وعطاء.. أما اليمامة فيحكى عنها القزوينى فى كتابه: «آثار البلاد وأخبار العباد» قائلاً:

«إنها ناحية بين الحجاز واليمن أحسن بلاد الله وأكثرها خيرًا ونخلاً وشجرًا وكانت قديمًا منازل طسم وجديس..

وتنسب إليها زرقاء اليمامة التى كانت ترى من مسيرة يوم وليلة والتى أنقذت قومها من خيل حِمْير..

كما ينسب إليها مسيلمة الكذاب الذى ادعى النبوة فى صدر الإسلام! وكعادة أهل البادية كانوا يختلفون ويتصارعون حول مناطق الكلأ والرعى. ثم يتصاعد الصراع ليشمل الأرض والحسب والنسب.. وتكثر الثارات والعداوات.. وكان هذا شأن قومى قُشيْر وجَرْم فى بادية اليمامة.





وكان صاحبنا يزيد بن الصِّمة من قشير، والطثرية أمه، وهى امرأة من طثر أحد أحياء اليمن أو من عنز بن وائل إخوة بكر.. وكانت الطثرية مولعة بإخراج زبد اللبن.. فسميت بالطثرية.. وطثرة اللبن أى زبدته.

ويكنى يزيد أبا المكشوح فقد كان على كشحه «خاصرته» كى نار.. وكان يلقب بالمودِّق.. لحسن وجهه وحسن شعره وحلاوة حديثه خاصة فى آذان النساء.

ومر زمان على قشير وجرم فى بلاء وحرب وصراع.. يتربص كل فريق بالآخر ويغيظ كل منهما الآخر فى الغزل بنسائه.. وإنشاء الأشعار للنيل منه.. يتقاتلون على المرعى والأرض.. حتى فقد الناس الأمن.. والحياة الهانئة.. وتمسك السماء ماءها.. وتضن الأرض بخيراتها.. حتى أمْحَل الناس وجف الزرع والضَّرع.. ونفد المال من الأيدى.. واشتد الجوع.. وأجدبت الأرض وأشرف الناس على الهلاك.. فانطلق الناس يضربون فى البادية بحثًا عن الرزق..

وتسامع الناس أن السماء قد جادت على قشير.. فلم تجد جرم مفرًّا من اللجوء إلى قشير متناسين ما بينهما من ثارات وعداوات.. وينطلق بعض السادة من جرم إلى سادة قشير.. ويتحدث كبيرهم:

– لقد جئنا إليكم مستجيرين غير محاربين ولا متصارعين..

قالت قشير:

– من أى شىء تستجيرون..

قالت جرم: من الجدب والهلكة التى لم تُبْقِ لنا خيرًا قط..



وهنا يتغلب الخلق العربى.. ويتناسى الناس عداوات الماضى.. وتجير قشير جرمًا وتسالمهم.. وتمنحهم جانبًا من أرضها الخصبة.. ويختلط القومان.. ويتسامران.. ويتقاربان.. ويتلاقى الشعراء.. بالشعراء.. والسادة بالسادة.. والكئوس بالكئوس.

كان فى جرم فتى يقال له ميَّاد.. وكان مشهورًا بتغزله.. وكان حسن الوجه.. فارع القامة.. يأخذ بقلوب النساء.

وقد هيأ له القرب بين القومين.. أن يذهب إلى القشيريات يطلب منهن الغزل والصبا والحديث.. فى غيبة الرجال واشتغالهم بالسقى والرعى، وكان الغزل جائزًا حسنًا فى جرم.. ومكروهًا فى قشير.

ولكن القشيريات كن من العزة والأنفة.. فدفعنه عنهن وأسمعنه ما يكره.. ورفضن أن يجبنه على غزله.

ويعرف رجال قشير ذلك من نسائهم الغاضبات. بل قالت عجائز منهن:

والله لا ندرى أرعيتم جرما الرعى.. أم أرعيتموهم نساءكم؟ فاشتد ذلك على رجال قشير.. حينما عرفوا بحقيقة ما يفعله ميَّاد.. وتجتمع قشير للتشاور فى الأمر:

فقال بعضهم: عليكم أن تستأصلوا جرمًا من أرضنا.

وقال آخرون: قبيح والله.. قوم قد سقيتموهم مياهكم.. وأرعيتموهم مراعيكم.. وخلطتموهم بأنفسكم.. وأجرتموهم.. من القحط.. أن تفعلوا معهم ذلك.. وما هذا الرجل إلا سفيه من سفهائهم.. فليأخذوا هُمْ على يديه.. فإن فعلوا.. كفونا المشقة.. وإن امتنعوا وأقروا ما كان منه.. يحل لكم ما تنوون عليه.

ولا جناح عليكم لو تستأصلونهم.. ولاقى هذا الرأى صدًى طيبًا عند الجميع.. فما أن أصبحوا حتى ذهب بعضهم إلى جرم.. واجتمعوا بهم..

قالت قشير:

– تعلمون أن الغزل لدينا مكروه.. وهو بدعة جئتم بها إلينا.. فإن كانت سجية لكم فليس لكم لدينا إرعاء ولا إسقاء.. وعليكم الرحيل أو نحاربكم.. وإن كان افتتانا فأنكروا على من فعله وازجروه.

قالت رجال من جرم:

– ماذا تقصدون.. وماذا حدث لكم؟

قالوا: رجل منكم ظل يجر أذياله بين بيوتنا.. ولا ندرى ما يريد.. وهنا قهقهت جرم وسخرت من جفاء قشير وعجرفتها، ثم قالت:

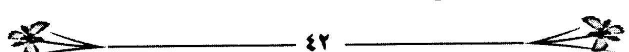
– لعلكم تحسّون من نسائكم ببلاء.. فهل لكم أن تبعثوا إلى بيوتنا رجلا ورجلا..

قالت قشير:

– والله ما نحس من بيوتنا إلا العفة والكرم.. وما البلاء إلا فيكم أنتم.

وتأزم الموقف بين الطرفين.

فقالت جرم إذن نبعث رجلاً إلى بيوتكم يا بنى قشير.. إذا غدت الرجال وخلفوا النساء.. وتبعثون رجلاً إلى بيوتنا.. ونتحالف ألا يتقدم رجل منا إلى زوجة ولا أخت ولا بنت ويخبرها بشىء.. لكى يظل ما نتفق عليه سرًّا! ونلتقى فى العشية.. وقد أتى كل رجل بدليل أو علامة ممن كانت معه..



وهكذا شأن العرب تثور العداوات على أقل الأسباب.. ومن قبل كانت حرب البسوس.. وحرب داحس والغبراء.. بلا سبب معقول.. فماذا حدث فى هذا الرهان الغريب..

رجل من جرم يدخل إلى نساء قشير.. ورجل من قشير يدخل إلى نساء جرم.. ومن ينجح منهما فى إعطاء الدليل والحجة فقد نجح فى جرح عفة النساء وكرامتهن.

لقد وافق الجميع على هذا الرهان.. وتحالفوا على ما اتفقوا عليه. فلم يخبر رجل زوجة ولا أختًا ولا بنتًا بما حدث.. بل تحالفوا على ألا يعودوا إلى البيوت قبل العشية.

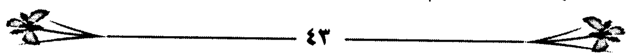
ويختار قوم جرم ميادًا.. ليذهب إلى القشيرات مرة أخرى.. ويختار القشيريون يزيد بن الطثرية ليذهب إلى جرم.. فماذا كانت النتيجة.؟

تتوقف الأحداث لدى القومين ساعات النهار.. وكل الناس يتوقعون ويتوهمون. حتى جاء الليل.

أما مياد الجرمى فقد غدا إلى القشيريات.. وظل يدور بين البيوت لعل واحدة من نسائهم تستجيب.

وظل مرجوعًا مقصيًّا لا يقترب من بيت إلا استقبله النساء بالحجارة وقطع الحديد.. وهو سعيد بما يفعلن يظن أنهن بهذا يطلبنه.. حتى أجهده العطش والتعب فانصرف حتى جاء إحدى الأشجار فى منتصف النهار فتوسد يده ونام فى ظلها حتى بعد الظهيرة.

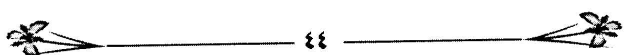
ويستيقظ مياد بعد أن أخذ راحته.. وسكن بعض ما فيه من ألم الضرب والعطش.. ثم اقترب إلى ماء فعَبَّ منه ما شاء.



وأسرع مياد إلى القوم.. لعله يصل قبل يزيد.. فوجد أَمَةً ترعى غنمًا.. فأخذ برقعها.. وانطلق إلى القوم.. وصاح فيهم:

– هذا برقع واحدة من نسائكم يا بنى قشير..

طرح البرقع بين أيديهم.. فأدركته الأمة صارخة وتعلقت ببرقعها واستردته.. فخجل مياد من فعلته خجلاً شديدًا..



هذا ما كان من أمر مياد مع القشيريات..

أما ما كان من أمر يزيد مع جرم.. فقد غدا إلى الجرميات وكان حسن الوجه رقيق الحاشية.. فاستقبلته الجرميات بأكرم استقبال.. لا يصير إلى واحدة منهن إلا افتتنت به أخرى وتابعته وطلبته إلى بيتها ومنحته دليلاً على أن يعدها ألا يدخل إلى غيرها.. فيقول لها:

– وأى شىء تخافين، وقد عاهدتك وليس لأحد غيرك فى قلبى من نصيب؟! وظل يزيد على حاله تلك حتى ما بعد العصر.. وقد جمع من القشيريات براقع وأساور وأمشاطًا وغيرها ثم قصد القوم وهو شبعان مدهونًا مكحولاً مرجل الشعر واللمة.

ويصل يزيد إلى القوم وقد غرق مياد فى خجله وخيبته.. وكاد القوم أن ينصرفوا فنثر بين أيديهم البراقع والأساور والأمشاط وغيرها.. وقد حلف القوم ألا يعرف رجل شيئًا لامرأته إلا التقطه.

واسودت وجوه جرم.. وأمسكوا أيديهم عن مدها إلى شىء.. لكن قشير قالت:

- إن بيننا عهودًا ومواثيق.. فمن شاء أن يخلف عهده فليمسك يده. وهنا بسط كل رجل يده إلى ما عرفه من الأشياء والتقطه خجلاً.. لكنهم تفرقوا على عداوة وحرب.. قائلين:

- هذه مكيدة يا قشير..

فقال يزيد بن الطثرية فى ذلك:

فإن شئتَ يا ميادُ زُرنا وزرتمُ ... ولم تنفسِ الدنيا على من يصيبُها
أيذهبُ ميادُ بألبابِ نسوتى ... ونسوةُ ميادٍ صحيحٌ قلوبُها؟

وكانت سخرية صريحة من يزيد حاول مياد أن يرد عليها قائلاً:

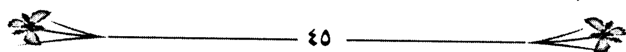
لَعَمركَ إنَّ جمعَ بنى قشير ... لجرمٍ فى يزيدَ لَظَالمونا
أليس الظلمُ أن أباكَ مِنَّا ... وأنك فى كتيبةِ آخرينا
أحالفةٌ عليك بنو قشير ... يمينَ الصبرِ أم مُتحرِّجونا

وانصرف القومان على حربٍ.. وثاراتٍ.. وعداواتٍ.. واتّصلت الأشعار من الطرفين تعاود رسالتها.. وتدافع عن قومها.. وتهجو القبيلة الأخرى.. زمانًا طويلاً.

لكن شيئًا ما هبط بيزيد.. أبعده عن هذه الحروب وأشعارها وجعله يغير مجرى أشعاره!

كان يزيد وهو يمارس رهان قومه.. ينتقل من امرأة إلى أخرى من الجرميات.. حتى بلى بعشق جارية من جرم فى ذلك اليوم يقال لها: وحشيَّة، وكانت من أجمل النساء وأحسنهن.

لكن ما حدث بين قشير وجرم حال دون ذلك التواصل الذى تاق إليه يزيد.. وحاول يزيد أن يصل وحشية.. لكنه لم يستطع.



ويبلغ به الشوق والعشق مدًى كبيرًا.. حتى أشرف على الموت واشتد به الجهد.. ولم يجد أمامه إلا ابن عمه خليفة بن بوزل يشكو إليه ما وصل إليه فدخل عليه وقال:

- يا ابن عمى.. لقد عشقت وحشية.. وأصابنى سهمها فى مقتل.. وتعلم أنى ليس لى إليها من سبيل.

قال له: أعلم هذا يا ابن عمى.. وأرى أن التعزى أجمل.. وليس من العقل أن تقتل نفسك.. وتأثم بربك.

قال يزيد:

- ليس لى مطمع فى الحياة إلا وحشية.. فإن كنت تريد لى الحياة فاجعلنى أراها.

قال خليفة:

- وما العمل يا يزيد.. وكيف الحيلة.

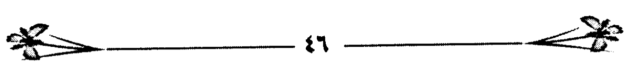
قال يزيد: تحملنى إليها يا ابن عمى.

فحمله خليفة.. وأوهمه أنه ذاهب إلى وحشية.. فقد كان من الصعب أن يصل إليها فى قومها..

ويذهب عقل يزيد.. ويغيب عن وعيه كثيرًا.. فيذكرون له وحشية فيفيق على اسمها.. ويتخلله الأمل فى لقائها.. ثم ما يلبث أن يشتد به الوجع ويصيبه اليأس.

وظلا على تلك الحال من قوم إلى قوم.. حتى بلغا بعد زمن طويل حى وحشية.. وهناك لقيا رعاة الحى.. وأخذا يتقصيان.. ويسألان عن راعى وحشية.

ويلقى خليفة غلام وحشية وغنمها.. ويقوده إلى يزيد.. ويسأله يزيد:



ما حال وحشية؟

فيرد غلامها: هى والله ليست بخير.. لا حفظ الله بنى قشير ولا بارك الله يوم رأيناهم.. إنها والله عليلة منذ رأيناهم.

فقال خليفة: ويحك يا أخى.. إن هنا رجلاً يستطيع أن يداويها فأخبرها بهذا ولا تخبر أحدًا غيرها.. ووعدهم الراعى أن يفكر..

حتى إذا جن الليل.. انحدر الراعى بغنمه حتى استقرت فى منامها.. وصحب يزيد إلى حيث توجد الشياه.. وأعطاه الراعى فروة شاة سوداء فلبسها يزيد وسار على أربع إلى حيث توجد وحشية.. وكأنه إحدى الشياه..

وكان لقاء من العشق المجنون بين وحشية ويزيد.. سُرَّت به سرورًا شديدًا.. وأدخلته سترًا لها.. وجمعت عليه فى الصباح من تثق به من صويحباتها وأترابها.

وكان يزيد وخليفة قد تعاهدا على أن يذهب يزيد إلى وحشية ويظل خليفة فى الجبل البعيد ثلاث ليال.. فإن لم يعد يزيد ينصرف خليفة تاركًا إياه عند وحشية.

ويقيم يزيد ثلاث ليال عند وحشية.. يعود فيها إلى كامل عافيته، ثم انصرف من عندها إلى حيث يوجد ابن عمه.. فلقيه وهو سعيد بما أصبح عليه من العافية والسرور.. وطيب النفس.. ويسأله ابن عمه:

ما أخبارك يا يزيد:

يجيب يزيد:




لو انكَ شاهدتَ الصبا يا بنَ بوزلٍ	بفرع الغضى إذ راجعتنى غياطلُه
لشاهدت لهوًا بعد شحطٍ من النوى	على سخط الأعداء حلو شمائلُه
ويومًا كإبهام القطاةِ مزينًا	لعينى ضحاه.. غالبًا لى باطلُه
بنفسىَ من لو مر بردُ بنانه	على كبدى كانت شفاءً أناملُه
ومن هابنى فى كل أمرٍ وهبته	فلا هو يُعطينى ولا أنا سائلُه

ويظل يزيد يعيش على تلك الليالى الجميلة التى قضاها مع وحشية.. وكلما اشتاق إليها أكثر.. احتال على رؤيتها ووصلها.. أو أرسل إليها بأشعاره..

أحبك أطرافَ النهارِ بشاشةً	وبالليل يدعونى الهوى فأجيبُ
لئن أصبحَت ريحُ المودةِ بيننا	شمالاً لقِدْمًا كنت وهى جنوبُ

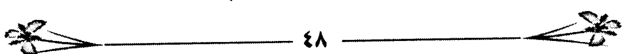
وكانت وحشية تجيبه بقولها:

أحبكَ حبَّ اليأسِ إن نفع الحيا	وإن لم يكُن لى من هواكَ طبيبُ

ويعيش يزيد فى ظل هذا العشق المجنون لا يميل إلى الحروب والبغضاء.. ولكنه يخترق هذه الظلمة الكثيفة بهذا الضوء الساطع من الصدق والشعر والجنون والوفاء لوحشية..

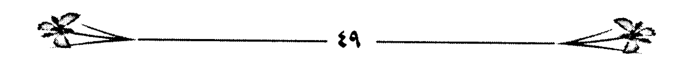
والقصة على ما يبدو فيها من طرافة وعذوبة.. تروى بأكثر من رواية، وفيها من المتناقضات ما يجعل حدوثها أمرًا غير منطقى.. وإن دلت على طبيعة الحياة البدوية.. وعلى ألوان العيش التى يعيشها البدوى.. وعلى تلك العلاقات بين الرجال والنساء التى تصل إلى درجة الاختلاط.. بل الرهان على شرف النساء.

وفى الوقت نفسه.. تضيع العداوة بين القبيلتين لمجرد اللجوء إلى القبيلة التى يكثر فيها الخير والخصب.



أما ما كان من عشق يزيد.. فقد نجده يختلف عن مجانين العذريين أو المتيمين؛ لأنه يصل إلى معشوقته – ولو عن طريق الحيلة – أما هم فإن جنونهم كان نتيجة عدم تحقيق هذا التواصل.

ومع كل هذا فهى نموذج لإحدى قصص العشق الجاهلية التى لا يلتفت إليها المؤرخون كثيرًا على الرغم من طرافتها واختلافها.







المخبّل وميلاء



فـلـو أنَّ أم الـعَـمـرِ أضـحَـت مُـقـيـمـةً

بـمصـر وجُـثـمـانِـى بِـشـحـرِ عُـمـانِ

إذًا لـرجـوتُ الله يـجـمـعُ شـمـلَـنـا

فـإنَّـا عـلـى مـا كـانَ مـلـتـقـيـانِ

المخبَّل القيْسى

فى إطار ما نسوقه من قصص العشق.. نحاول قدر الاستطاعة أن نقدم تلك القصص التى لا تتكرر كثيرًا.. والتى تختلف ولو قليلاً عن غيرها قصد التنوع.. ومن هذه القصص تلك التى نرويها الآن لشاعرٍ عاشقٍ من قيسٍ يقالُ له: كعب، ويلقب بالمخبل القيسى.

.. وكان قد خطب ابنة عمه ودخل بها.. وأنجب منها ولدًا.

وكان لزوجته أخت أجمل منها وأكثر حسنًا ورقة يقال لها ميلاء.. وذات مساءٍ خلا كعب بزوجته وكان شارد البال.. فسألته: ماذا بك يا أخى؟

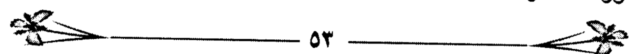
قال كعب: يا أم عمرو.. هل ترين أن الله عز وجل خلق أحسن منكِ؟

قالت زوجته وهى لا تلوى على شىء:

– نعم.. أختى ميلاء.. أحسن منى.. وأجمل!

قال كعب: أرانى أحب أن أنظر إليها..

فقالت: إن هى أدركت قصدك.. فلن تخرج إليك.. ولكن قف هنا وراء الستر.



ففعل.. وأرسلت إلى أختها فجاءتها.. فلما نظر إليها كعب عشقها من النظرة الأولى.. وصدق ما قيل عنها.

ومكث قليلاً.. ثم خرج.. واعترض طريق ميلاء وهى عائدة إلى أهلها وصارحها بحبه لها.

فقالت: والله يا بن العم ما وجدتَ من شىء إلا وقد وقع لك فى قلبى أكثر منه.

قال: إذن عدينى باللقاء.. وأعدك بالعشق والشعر.

وواعدته باللقاء.

وحدث أن فاجأتهما أم عمرو وهما يجلسان فى صفاء.. فمضت إلى إخوتها السبعة وأخبرتهم بخبر كعب وميلاء.

واجتمع أمر الإخوة على أن يستنكروا ما يحدث.

وتصرخ أم عمرو: إما أن تزوجوا ميلاء كعبًا.. وإما أن تكفونى أمرها.. ويوافق الأخوة على أن الأمر خطير.. ويبلغ ميلاء الخبر.

أما كعب.. فحينما بلغه ذلك أسرع بالرحيل إلى الشام حياء من إخوة زوجته.. وكان يقطن الحجاز مع قومه.. فلم يدر أهله ولا بنو عمه أين ذهب.. وفى ذلك يقول كعب:

أفى كل يومٍ أنتَ من لاعجِ الهوى ... إلى الشمِّ من أعلامِ ميلاءِ ناظرُ
بعمشاءَ من طولِ البكاءِ كأنما ... بها خرزٌ أو طرفُها متحازرُ
تمنَّى المنى حتى إذا قلَّتِ المنى ... جرى واكِفٌ من دمعِها متبادرُ

ويصل كعب إلى الشام.. ويهبط عند صديق له.. ويروى عنه ما يقول:

وكان هذا الصديق يتجه إلى الحجاز حيث أهل كعب.. فاجتاز بأم عمرو وأختها ميلاء وهو لا يعرفهما.. وسألهما عن الطريق إلى مكة.. فقالت أم عمرو:

– يا ميلاء.. صفى له الطريق.

فتذكر الرجل شعر كعب حينما سمع اسم ميلاء.. فأنشده.. فأقبلت عليه أم عمرو وقالت: يا عبد الله.. من أين أتيت؟

قال: أقبلت من الشام.

قالت: ولمن هذا الشعر؟

قال: لأعرابى بالشام يقال له كعب.

فأقسمت عليه لا يبرح حتى يرى إخوتها.. ويعرفوا ذلك.

فقال لها: إننى أروى عنه شعرًا آخر يا سيدتى.

فسألته أن يُسمعها ما يحفظ فقال:

من الناس إنسانانِ دينى عليهما ... مليَّانِ لولا الناسُ قد قضيانى

خليلىَّ أما أم عمروٍ فمنهما ... وأما عن الأخرى فلا تسلانى

بُلينا بهجرانٍ ولم أرَ مثلَنا ... من الناس إنسانينِ يهتجرانِ

أشدَّ مصافاةً وأبعدَ عن قِلِىً ... وأعطى لواشٍ حين يكتفيانِ

تحدَّثَ طرْفانا بما فى صدورِنا ... إذا برِمَت بالمنطقِ الشفتانِ

فوَالله ما أدرى أكلُّ ذوى الهوى ... على ما بِنا.. أو نحنِ مبتليانِ

فلا تعجَبا مما بىَ اليومَ من هوًى ... فبى كل يومٍ مثلُ ما ترَيانِ

ويلتقى الرجل بإخوة أم عمرو.. وكانوا قلقين على مصير كعب فهو أيضًا ابن عمهم.. وكان كعب أظرفهم وأشعرهم.. فأكرموا الرجل وحملوه على راحلة ودلوه على الطريق إلى مكة..

ورحل الإخوة إلى حيث يكون كعب بالشام.. لكن حدث شىء عكر صفو الرحلة.. لقد اقتربوا من نبع ماء يشربون.. وكان كعب أيضًا يزاحم على الماء.. فزحمه غلام منهم فقال له كعب: ويحك يا غلام.. من أبوك؟!



فقال: رجل يقال له كعب.

قال: وعلى أى شىء يجتمع الناس هناك؟

قال: اجتمعوا على خالتى.

قال: وما قصتها.

قال الغلام: ماتت.

فأدرك كعب أن هذا ولده.. وأن خالته هى ميلاء.. فزفر زفرة مات منها مكانه.

ويقبل عليه الإخوة.. فيدفنونه معها فى قبرين متجاورين..

ويلتف بعض القوم.. ليعرفوا قصة هذا العاشق الهارب..

وكانوا قد رووا عنه أشعارًا كثيرة منها:

أحقا عباد الله أن لست ماشيا بمرحاب حتى يحشر الثقلان

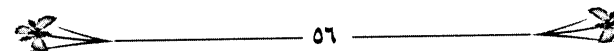
ولا لاهيا يوما إلى الليل كله ببيض لطيفات الخصور روانى

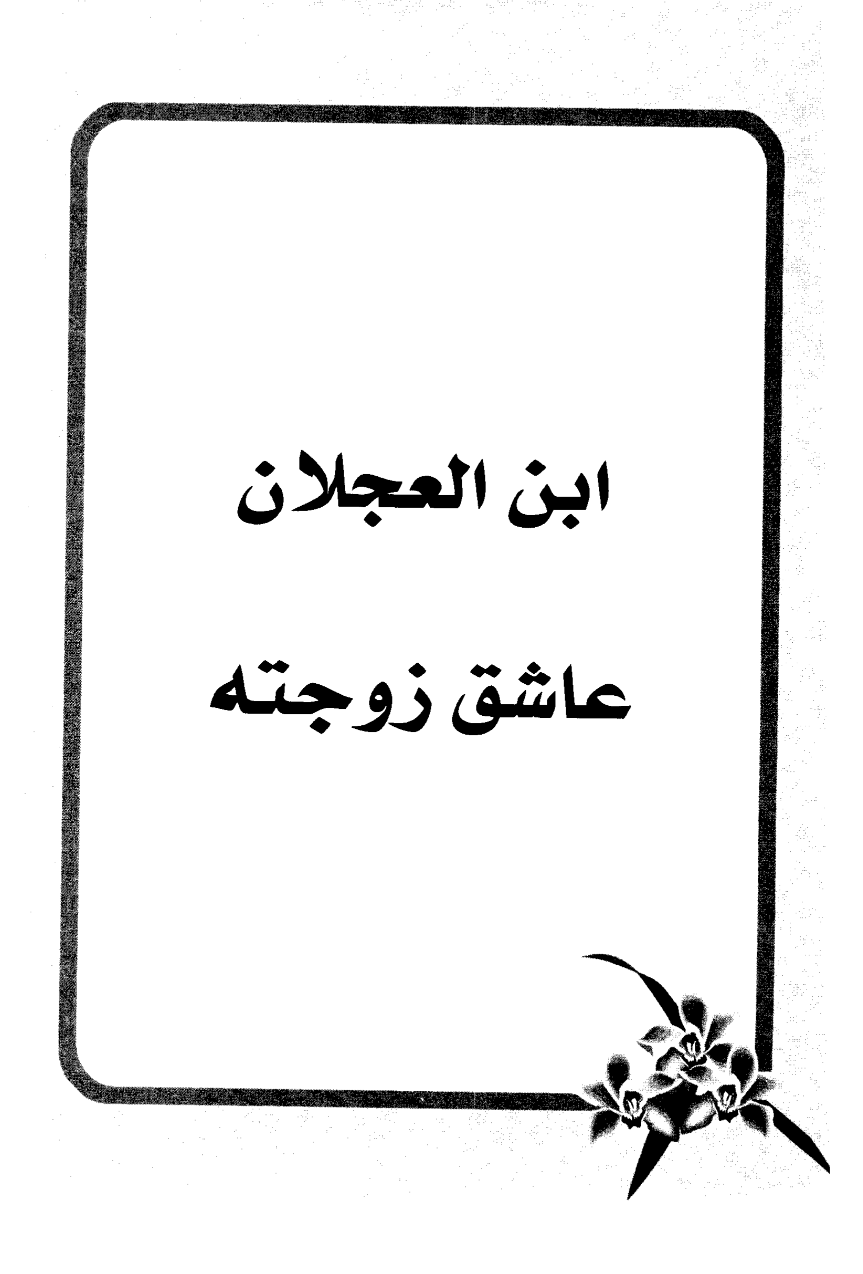
فلو أن أم العمر أضحت مقيمة بمصر وجثمانى بشحر عمان

إذا لرجوت الله يجمع شملنا فإنا على ما كان ملتقيان

هذه هى قصة عاشق هارب من عاطفتين صادقتين.. زوجته أم ولده.. وأختها الحسناء ميلاء.

وإنها والله لتضيف ملمحًا مختلفًا إلى ساحة العشق المجنون.





ابن العجلان

عاشق زوجته

فـــارقت هـــــنـــدًا طـــائـــعًا
فـــنـــدمت عـــنـــد فـــراقـــهـــا

فــــالـــعين تـــذرف دمـــعـــةً
كـــالـــدر مـــن آمـــاقـــهـــا

ابن العجلان

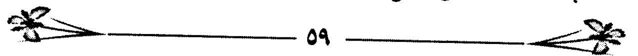
(١)

ربما تختلفُ عاطفةُ الحبِّ من حالة وجدانية إلى أخرى.. وربما تلتهب هذه العاطفة كلما كثرت وعظمت العقبات بين العاشقين.. وبالتالى يقل هذا الالتهاب كلما وجد العاشق معشوقته كيفما شاء.. دون جهد أو نصب.

والشعر حينما يكون لسان حال العاشق.. فإنه لا يكف عن ترجمة تلك الحال التى عليها العاشق.. ولا شك أنها تتغير من الصد إلى اللقاء إلى الوداع إلى الهجر إلى العناق إلى الشقاق!

وقد ينتهى بعض المتفلسفين إلى أن العاشقين يظلان على عشقهما كلما كان كلٌّ منهما صعب المنال على الآخر.. حتى إذا انتهت هذه العاطفة بالزواج أخذت فى الخفوت والخمود إلى أن تنطفئ.. وتظل الذكرى هى التى تضمن لهما حياة مستقرة.

وقصص العشق غالبًا لا تنتهى بالزواج.. ولهذا فإنها قصص حافلة بالصدق والحنين والبكاء والأسى.. فتخرج ما يشعر به المحب داخله.. حتى يبلغ به درجة الجنون.



وقصتنا اليوم.. تخالف كل هذه الظنون.. حيث تحكى عشق زوج لزوجته.. وكيف أصبح متيمًا بها.. بالرغم مما أحاطهما من القيود والصعاب.

وبطل هذه القصة هو عبد الله بن العجلان الأحب بن عامر بن فهد.. أحد الشعراء الجاهليين المقيمين.. بل هو أحد شهداء العشق العربى..

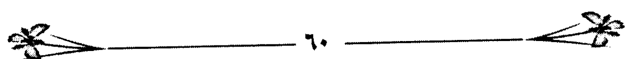
وكان عبد الله وحيد والديه.. والعرب كانت تدلل مثل هذا الوحيد؛ ولهذا أقطعه أبوه كثيرًا من الخير.. فتاه على أقرانه فى نهد.

وذات يوم مر على نهر غسان.. فرأى جمعًا من بنات العرب يغتسلن فى النهر، فنزل عن دابته.. وجلس على حافة النهر يملأ عينيه من هذا المشهد الجميل.

ولأن الشاعر بطبيعته متأمل.. فقد أخذ يتنقل ببصره وعقله بين هذه وتلك حتى وقعت عيناه على هند وهى تمشط شعرها وتسبله على بدنها.

وتسمرت عيناه ليتأمل هذا الجمال الإلهى.. الذى وهبها شفافية فى بياض جسمها.. وسوادًا فى شعرها المنسدل.. وتمنى لحظتها لو كان رسامًا يصور هذا الجمال فى لوحة.. لكنه ظل يتأمل حتى أصابه الحب بسهمه.. فلم يستطع أن يفلت منه طوال حياته.

وتخرج هند من الماء.. فتفاجأ بهذا الفتى وقد أقام حولها حصارًا من العشق المباغت.



ويلتقيان.. ويتواعدان مرة.. ومرة.. ويشتد بهما العشق.. فينطلق عبد الله إلى أبى هند ليخطبها.

وكان عبد الله سيدًا فى قومه «نهد» وابن سيد من ساداتها.. وكان أبوه أكثر بنى نهد مالاً.. فلما تقدم إلى أبى هند أجيب وتزوج هندًا.. وأقيمت الليالى.. وذبحت الذبائح.. وسعد الفتى بفتاته.

(٢)

ولأن العرب ينظرون إلى أولادهم باعتبارهم خلفاء لهم فى السيادة والمال.. فهم يتشاءمون من المرأة العاقر.. ويدفعهم ذلك إما لتطليقها وإما إلى الزواج عليها.

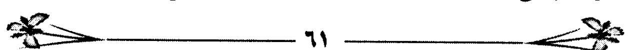
وكانت هند عاقرًا.. لا تلد.. ظلت مع عبد الله سنين سبعًا أو ثمانيًا لا ترزق بمولود.

ولم يكن عبد الله يقيم لهذا وزنًا.. بل على العكس تمامًا كان يزداد بها عشقًا وهيامًا.. وكان كلما حدثوه فى ذلك تمسك أكثر بها وازداد بها ولهًا.. ولكن والده أصابه الأسى وطالب ولده أن يطلقها.. أرسل إليه يومًا وبادره:

– يا ولدى أنت وحيدى.. وأملى فيك أن يكون لك ولد يرثك فى مالك وحسبك ونسبك..

قال عبد الله: يا أبى.. هذا أمر الله.. وحسبى أنى أحيا هانئًا مع هند..

قال أبوه: إنها امرأة عاقر يا ولدى.. وقد مكثت معها سنوات طوالاً وهى لا تلد.. ومن حقك أن تطلقها وتتزوج غيرها.



قال عبد الله فى حزم: لن أفعل هذا يا أبت.

هنا صاح أبوه بكل ما ملك من سلطة أبوية:

– إذا لم تفعل.. فهذا فراق بينى وبينك.. لن أكلمك أبدًا حتى تطلقها.. ولن أمنحك من مالى شيئًا.. حتى تفعل.

قال عبد الله: لك ما تريد يا أبت.. لكننى لن أطلقها.. ولن أجد فى بنات العرب من تعوضنى عنها.

كان عبد الله حاسمًا فى حواره مع أبيه.. وكان يستند إلى هذا العشق الجارف الذى ربط بينه وبين زوجته. فأنجب لهما هذه السنوات الثمانى من السعادة والهناء..

لكن أباه لم يسترح إلى ما انتهى إليه أمر ولده معه.. إنه ينتظر الفرصة السانحة لإرغامه على ترك زوجته.

لقد أرسل أبوه أعوانه فى أثره.. يراقبونه.. ويعرفون متى يصحو ومتى ينام.. ومتى يسكر حتى الثُمالة.. ومتى يفيق.

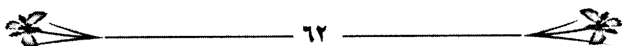
ماذا يريد هذا الأب من ولده؟ ولماذا يطبق عليه هذا الحصار؟ لقد أحسَّ عبد الله بكل هذا وأحست هند.. لكنهما تحملا كل شىء وكان جنون العشق بينهما أقوى من كل حصار.

(٣)

ويومًا كان الأب جالسًا مع سادات قومه.. فيدخل عليه من يبلغه أن ولده عبد الله قد سكر حتى الثُمالة عند هند..

وعلى الفور أرسل إليه من يطلبه.

لكن هندًا تتوجس من هذا الطلب.. فتبادر زوجها:



– لا تذهب إلى أبيك يا عبد الله حتى تفيق.. فوالله قلبى يحدثنى أنه لا يريد لك خيرًا الساعة.

قال لها عبدالله وهو فى سكره:

– ماذا يستطيع أن يفعل بى هذا الرجل؟

قالت هند: لقد بلغه أنك سكران فطمع فيك أن يُقسم عليك فتطلقنى.. فنم مكانك.. ولا تمض.

وأخذته العزة.. والتحدى فعصاها وأبى أن يمكث فى البيت.. فأقسمت عليه.. فأخذ يضحك ويضحك:

– أتريدين أن يقولوا عنى.. لقد خشى عبد الله أن يواجه أباه.. اتركينى يا امرأة.. لا أحب أن أكون ضعيفًا خائرًا أمام الناس. فتعلَّقت هند بثوب عبد الله فضربها بمسواك كان فى يده.. وألقاها أرضًا. وكانت يدها فيها زعفران.. فأثر فى ثوبه مكان يدها.. لكنه انطلق كالسهم إلى حيث أبوه..

ويدخل عبد الله على أبيه.. فيجده بين سادة قومه وفتيان قبيلته.. فرحب به وأجلسه جانبه.. وهو لا يزال فى سكره..

ثم أخذ يؤنبه ويلومه على حاله.. وأخذ القوم الحضور يلومونه كذلك ويناوشونه..

قال أحدهم: ما شهدنا رجلاً عشق زوجته كل هذا العشق وهى لا تأتى له بما تقر به عينه من الولد.

وقال آخر: أى شغف هذا الذى تغرق فيه يا ابن العجلان؟ أليست هند واحدة من بنات العرب.. لكنها امرأة ناقصة؟

وقال ثالث: ما شهدنا رجلاً أضعف قلبًا أمام امرأة مثلك.. أين أنت من الفتيان الذين لهم القلب الصخر.. والحزم القوى؟

ولم يكن عبد الله يحير جوابًا.. بل كان كلما حاول أن يرد.. بادره أحدهم بلوم جديد.. وبوَخْزٍ يصل إلى عمق القلب.. حتى انتهى المجلس به إلى الموافقة على تطليقها.

وحتى تتم اللعبة.. انطلق به الفتيان ليلتها إلى الخلاء.. فأخذوا يتسامرون ويشربون حتى الصباح.

ويرسل الأب من يخبر هندًا فى الصباح بأن زوجها قد طلقها وعليها أن تعود إلى بيت أبيها.

(٤)

ويعود عبد الله إلى نفسه.. ويفيق من هذا الكابوس اللعين.. لقد تم كل شىء كما أراد أبوه.. وقد فقد هندًا إلى الأبد.. ماذا يفعل بهذه السنوات الماضية التى ملأته سعادة وحلمًا ووفاء، لك الله يا عبد الله! ولعن الله السكر والعناد!

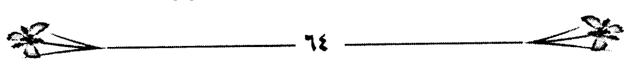
ماذا يبقى له؟

لقد شعر عبدالله بجسامة الخطأ الذى ارتكبه فى حق هند وفى حق نفسه أيضًا.. لكن لا حيلة له..

أخذ يأسف على ما فعل.. ويبكى:

ألا أبلغا هندًا سلامًا وإن نأت   فقلبى بها مذ شطت الدار مدنف
ولم أر هندًا بعد موقف ساعة   بأنعم فى أهل الديار تطوُف

ويشرب كأسه حتى الثمالة لينشد مرة أخرى:



ألا إن هندًا أصبحت منك محرما   وأصبحت من أدنى حموتها حما

فأصبحت كالمقمور جفن سلاحه   يقلب بالكفين قوسًا وأسهما

ويأتيه رفاقه لعلهم يسرون عنه كآبته وحزنه.. لكنه لا يكف عن الأسى والشعر.

أما هند فقد عادت إلى أبيها مقهورة يائسة.. فتلقاها أبوها.. وجفف دموعها.. وخفف عنها أساها وحزنها.. ثم قال لها:

– لا عليك يا هند.. سأزوجك بمن هو أفضل من ابن العجلان!.. لك الله أيضًا يا هند.. أى أسى حلَّ بك بعد هذه السنوات السعيدة التى عشتها مع ابن العجلان..

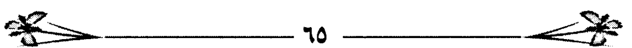
لم تمض أيام على عودة هند.. حتى خطبها رجل من بنى نُمير.. ذو حسب ونسب ومال يفضل ابن العجلان.. فزوجها أبوها منه.. وأقيمت الأفراح فى بيت أبيها.. ثم رحلت هند مع زوجها إلى قومه بنى نُمير.

(٥)

ويظل عبد الله بن العجلان سقيمًا مشردًا بعد رحيل هند وزواجها من غيره.. ولم يكن يملك الاتصال بها لما كانت بين نَهْد – قبيلته – ونُمير – قبيلة زوج هند – من ثارات وعداوات وحروب.

وكثيرًا ما كانت الصراعات تقوم بين القومين وتظل زمنًا طويلاً يحرم فيه على أى القومين الاتصال بالآخر.

وحدث أن جمعت نهد لبنى نمير جمعًا فأغارت على طوائف منهم وفيهم بنو العجلان.. وبنو الوحيد.. وبنو قشير.. وغيرهم..



ويظل القتال معلنًا ويظل الفتيان وقودًا فى هذه الحرب لزمن طويل.. حتى انهزمت بنو نمير.. وغنمت بنو نهد أموالهم.. وقتل فى الحرب من قتل من الطرفين..

وفى ذلك يقول ابن العجلان:

ألا أبلغ بنى العجلان عنى فلا ينبيك بالحدثان غيرى
بأنا قد قتلنا الخير قرطًا وجُلْنا فى سَراة بنى نمير
وأفلتنا بنو شكل رجالاً حفاة يربئون على سُمير

وكان عبد الله قد أسر رجلاً من بنى الوحيد فمنَّ عليه وأطلقه ووعده الوحيدى بالوفاء له.. فلم يفِ.. فقال عبد الله:

وقالوا لن تنال الدهر فقرًا إذا شكرتك نعمتك الوحيد
فيا ندمًا ندمت على رزام ومخلعه كما خلع العتود

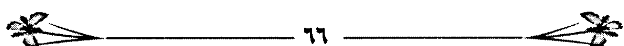
ويعرض على عبد الله فتيات الحى جميعًا فلم يقبل واحدة منهن..

فلا يزال عشق هند يمتلك عليه قلبه ويصيبه بالجنون.

وكان يرد على من يعرض عليه أية فتاة تعوضه عن هند:

فارقت هندًا طائعًا فندمت عند فِراقها
فالعين تَذرِف دمعة كالدر من آماقها
متحلبًا فوق الرداء يجول من رقراقها
خودٌ رداح طَفْلةٌ ما الفحشُ من أخلاقها
ولقد ألذُّ حديثها وأسرُّ عند عناقها

ثم يرفع صوته وكأن هندًا تصغى إليه:



إن كـنت سـاقـيـة بـبـز ل الأَدْم أو بـحـقـاقـهـا
فـاسـقـى بـنـى نـهـد.. إذا شـربـوا خـيـار زقـاقـهـا
فالخيل تعلم كيف نلحقها غـداة لحاقـهـا
بـأسـنـةٍ زرق صـبـحـنـا الـقـوم.. حـدَّ رقـاقـهـا
حـتـى نـرى قصد الـقَـنـا والـبـيض فـى أعـنـاقِـهـا

ويبلغ هذا الشعر هندًا فيتوقد قلبها جنونًا.. ويشتعل حنينًا وولهًا.. لكن هل من لقاء بين عاشقين.. ينتمى كل منهما إلى عداوة وحروب وبغضاء.. لقد كسبت نهد حربًا مع بنى نمير.. لكن بنى نمير لم تنس هذه الهزيمة.. فقد جمعت فرسانها مرة أخرى.. لكى ترد على نهد هزيمة بهزيمة..

وتعلم هند من زوجها ما عزم عليه القوم.. فأخذت تحدث نفسها:

– كيف أرتضى بهزيمة قومى بنى نهد.. صحيح أننى أنتمى الآن إلى بنى نمير قوم زوجى.. لكن فى نهد أبى وأمى وإخوتى.. وأسرتى كلها.

وتنهدت هند قليلاً ثم أكملت:

– وفى نهد كذلك عبد الله!!

وتأملت الأمر.. وأخذت توازن بين كثير من الأمور.. وأخيرًا استدعت غلامًا فقيرًا من بنى نمير وقالت له:

– هل لك فى خمس عشرة ناقة على أن تفعل ما آمرك به؟

ويفرح الغلام بهذا العطاء السخى.. ويسألها عن مطلبها فقالت:

– تنطلق إلى قومى فتنذرهم قبل أن يصلهم بنو نمير.

ولم يتردد الغلام.. فهناك خمس عشرة ناقة فى انتظاره.



ومنحته ناقة لزوجها يركبها.. وزودته تمرًا ووطْبًا من لبن.. فركب الغلام وجَدَّ فى السير.. حتى نفد اللبن وأحس العطش..

ويصل الغلام إلى بنى نهد وقد يبس لسانه من العطش.. فلما كلموه لم يستطع أن يجيبهم وأشار إلى لسانه.. فأمر خِراش بن عبد الله بلبن وسمن دافئين.. وسقاه.. فابتل لسانه.. وتكلم قائلاً:

– أنا رسول هند إليكم.. أتيتكم لأنذركم بقدوم بنى نمير محاربين.. وتجتمع بنو نهد وتستعد للقاء بنى نمير.. فلما اقتتلا انهزمت بنو نمير هزيمة ساحقة أنشد على أثَرِها ابن العجلان:

ألم تأت هندًا كيفما صنع قومها ... بنى عامر إذ جاء يسعى نذيرها
فقالوا لنا إنا نحب لقاءكم ... وإنا نحيىّ أرضكم ونزورها
فقلنا إذًا لا ننكل الدهر عنكم ... بصم القنا اللائى الدماء نميرها
فذوقوا على ما كان من فرط إحنة ... حلائبنا إذ غاب عنا نصيرها

(٦)

ويشتد السقم بعبد الله.. وتزداد نار العشق اشتعالاً فى قلبه.. يريد أن يذهب إلى حيث هند.. لكن تلك الإحن التى ثارت بين القومين تحرم هذا اللقاء.. بل تجعله مستحيلاً.

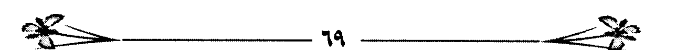
لم يجد عبد الله مفرًّا من الخروج والمخاطرة.. فهو لا يجد فى بقائه بين قومه إلا السقم والموت.. ولو خرج.. فهو معرض أيضًا للموت.. لكنه موت كموت الشهداء.. فليكن شهيد العشق.. شهيد هند.

غافل عبد الله أباه وقومه.. وخرج سرًّا مخاطرًا بنفسه حتى أتى أرض بنى نمير.. لا يرهب ما بينهم من الشر والبغضاء.



ويقصد خِباء هند.. وقد أهلكه السفر.. وأخذ منه التعب كل مأخذ.. ويرى عبد الله هندا جالسة على الحوض.. وزوجها يسقى إبله بالقرب منها.. فلما نظر إليها.. ونظرت إليه.. رمى بنفسه عن بعيره.. وأقبل عليها كالمجنون الطائش.. فأقبلت هى أيضًا عليه كالمجنونة الطائشة.. وعانق كل منهما الآخر.. وأخذا يبكيان وينشجان ويشهقان كثيرًا وزوج هند ينظر إليهما فى دهشة وعجب.. غير مصدق عينيه.. ويظل العاشقان فى بحر دموعهما الدافئ حتى سقطا على وجهيهما بلا حراك.

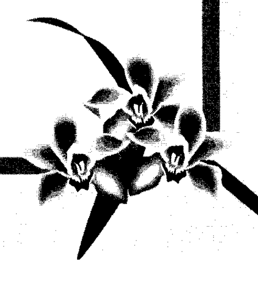
ويسرع زوج هند.. لينظر ما انتهى إليه حالهما.. فوجدهما ميتين.. ويدفن العاشقان فى قبر واحد.. بعد أن سطرا واحدة من قصص العشق.. كتب على بطليها الموت عشقًا.. وجنونًا.





عبد اَللّه بن علقمة

وصاحبته حُبيش



وإن يقتلوني يا حُبيش فلم يَدَع
هواك لهم مني سوى غُلةِ الصدرِ
وأنتِ التي أخليتِ لحميَ من دمي
وعظمي وأسبلتِ الدموعَ على نحرِي

عبد الله بن علقمة

ربما وقع اختيارنا على هذه القصة لقدمها تاريخيًا.. ولاختلاف في تفاصيلها عن غيرها من القصص.. بالرغم من قيام عاطفة حب قوية بين بطليها.

أما رجلها العاشق.. فهو عبد الله بن علقمة.. وهو واحد من فتيان بني عامر بن عبد مناة بن كنانة.. وأحد فرسانها.

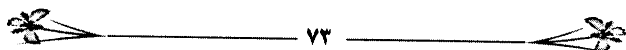
وتبدأ خيوط القصة منذ كان غلامًا على مشارف النضج.. دون المحتلم.

فقد صحب أمه مرة لتزور إحدى جاراتها.. وكانت لهذه الجارة بنت حسناء يقال لها حُبَيشة بنت حُبيش أحد بني عامر كذلك.. وكانت في مثل سنه.

وتدخل الأم بولدها على جارتها وابنتها حبيشة.. فيراها ابن علقمة.. فأعجبته ووقعت في نفسه.. وظل طوال الوقت لا يرفع عنها عينيه.

ويرى الفتى أن يعود إلى نفسه قليلاً.. فيترك أمه لدى جارتها وينصرف.. وتظل الأم في ضيافة جارتها يومين.

ثم يذهب عبد الله ليرجع أمه من عند جارتها.. وهناك وجد حبيشة قد تزينت لأمر كان في الحي.. فهام بها وازداد بها ولهًا.. وانصرف بأمه عائدًا تحت وابل من المطر.. لم يشعر بوخزه.. وفي ذلك يقول:



ومــا أدرى بــلــى إنــى لأدرى   أصوبُ القطْر أحسن أم حُبَيْشُ
حبيشةُ والذى خلـق الـهَدَابـا   وما عن بعدها للصب عيشُ

ويتسلل إلى سمع أمه ما يقوله ولدها.. لكنها تعمدت أن تتغافل حتى وصلا إلى ربوة من الأرض.. وفوقها ظبى.. فقال:

يـا أمـتـا أخبرينى غيرَ كـاذبـةٍ   وما يريد مَسُولُ الحق بـالكذبِ
أتـلك أحسـنُ أم ظـبـىٌ بـرابـيـةٍ   لا بل حبيشةُ فى عينى وفى أرَبى

ولم تستطع الأم أن تتغافل هذه المرة.. ولابد لها أن تجيب.. لقد زجرته أمه وقالت له:

– مالك وبنت جارتى.. إن لك بنت عمك.. فهى أجمل من تلك.

ويصمت الفتى.. فقد كان صغيرًا على مشارف النضج.

ويبيت الفتى ساهرًا لا يقر له قرار.

وفى صباح اليوم التالى.. أسرعت أمه إلى امرأة عمه وقالت لها:

– زينى ابنتك لعبد الله.

وما هى إلا أيام.. حتى تم كل شىء.. وأدخلتها عليه.. فلما رآها عبد الله أطرق واكتأب.. فقالت له أمه:

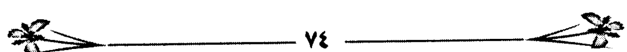
– ماذا ترى.. أيهما الآن أحسن؟

فقال والدمع فى عينيه:

إذا غـيـبت عـنـى حـبـيشةُ مرةً   من الدهرِ لم أملك عزاءً ولا صبرا

وتغافلت أمه هذه المرة كأنها لم تسمع شيئًا.. وانصرفت.

وتحكى القصة أن عبدالله لم ينصرف عن عشقه بحبيشة.. بل ظل يراسلها وتراسله حتى أحبته كما يحبها.



ويـالسعـادة الفتـاة حينمـا يعشقـهـا شـاعـر.. لتظل خـالدة فى شعره.. ويا لقسوة قومها حينما يرون أن هذه فضيحة تُحل دم قـائلهـا.. وتحرمها عليه.

لقد كانت حبيشة تجتمع بصديقاتها لتخبرهن بما يقول فيها عبد الله:

حبيشة هل جدِّى وجدك جامعٌ — بشملِكُم شمْلى وأهلكم أهْلى
وهـل أنـا مـلـتفٌ بـثـوبك مـرةً — بصحراء بين الأليتيْن إلى النخلِ
وهل أشتفى من ريق ثغرك مرةً — كراحٍ ومسكٍ خالطا ضَرَب النحلِ

وتشى واحدة من صديقاتها إلى أهلها.. فيثورون.. ويحجبونها عنه مدة.. وهو يزداد ولهًا وغرامًا.. ويكثر فى قول الشعر.

ويجيئها عتاة القوم مرة ويطلبون منها أمرًا عسيرًا.

– قابليه فى موضع كذا.. فإذا أتاك.. فقولى له: نشدتك الله إن كنت أحببتنى.. فوالله ما على الأرض أبغض إلىَّ منك.

ويصحبونها حتى موضع اللقاء ويختفون على مرمى ومسمع.

ويقبل عبد الله لوعدها.. فلما دنا منها دمعت عيناها والتفتت حيث قومها جلوس يستمعون وينظرون.. فأدرك الأمر.. وعاد.

ثم بلغه ما قالوا لها أن تقوله.. فأنشأ يقول:

لو قلت ما قالوا لزدت جوى بكم — على أنه لم يبق سترٌ ولا صبرُ
ولم يك حبى عن نوالٍ بذلتُهُ — فيسليَنى عنه التجهمُ والهجرُ
وما أنس م الأشياء لا أنس دمعها — ونظرتـها حتـى يـغيِّبنى القبرُ

ويظل عبد الله على وفائه وعشقه المخلص لا يحيد.. ويظل شعره يتقاطر صافيا.. ليصل إلى قلبها عذبًا.. لا شائبة فيه.

وتشاء الأقدار أن تقترن السياسة بالعشق.. ويكون عبد الله واحدًا من رجال هذه اللعبة.

فقد بعث النبى ﷺ خالد بن الوليد إلى بنى عامر بن عبد مناة يدعوهم إلى الإسلام.. فإن أجابوه.. وإلا قاتلهم.

وهنا تختلف الروايات.. حول ما إذا كان النبى الكريم ﷺ أمر خالدًا بأن يدعوهم إلى الإسلام ولم يأمره بقتال.. أم أنه أمره بقتال.

وكان العرب لا ينسون ثاراتهم وعداواتهم القديمة.. ولهذا ثار بين الفريقين قتال ليس على دعوة الإسلام وإنما على ثارات قديمة.

وكان عبد الله فى صفوف قومه.. وكان منهك القوى.. ناحل الجسم.. فأخذه جيش المسلمين وربطوه بحبل لكى يقتلوه.. فقال لهم عبد الله:

- هل لكم فى خير؟

قالوا: وما هو؟

قال: تدركون بى هودجًا يمشى أسفل الوادى ثم تقتلوننى..

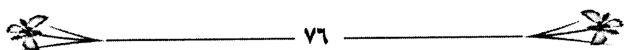
قالوا: نفعل.

فخرجوا به حتى وصلوا الهودج.. فصاح عبدالله:

- اسلمى يا حُبيش.. عند نفاد العيش.

فتوقفت حبيش وقالت: وأنت يا عبد الله.. اسلم على كثرة الأعداء.. وشدة البلاء.

فقال: سلام عليك دهرًا.. وإن بقيت عصرًا.



قالت: وأنت.. سلام عليك عشرًا.. وشفعًا تترى.. وثلاثاً وترا.

فقال:

وإن يقتلونى يا حبيش فلم يدع هواك لهم منى سوى غلة الصدر
وأنت التى أخليت لحمىَ من دمى وعظمى وأسبلت الدموع على نحرى

فقالت له:

ونحن بكينا من فراقك مرةً وأخرى وآسيناك فى العسر واليسرِ
وأنت - فلا تبعد - فنعم فتى الهوى جميل العفاف فى المودةِ والسترِ

فقال لها:

أريتك إن طالبتكم فوجدتُكم بحَليةَ أو أدركتكم بالخوانقِ
ألم يك حقًا أن ينوَّلَ عاشقٌ تكلّف إدلاجَ السُّرى والودائقِ

فقالت: بلى والله.. فقال:

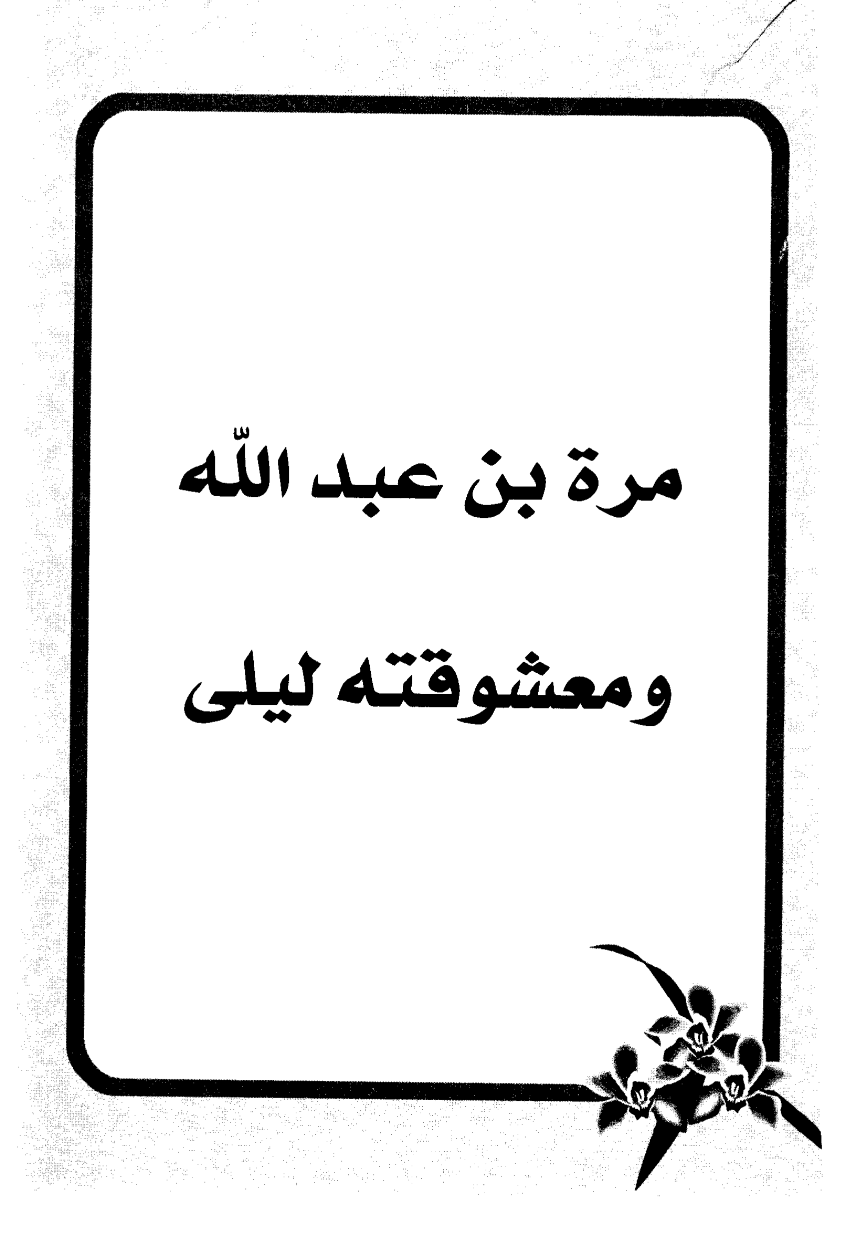
فلا ذنب لى إذ قلت إذ نحن جيرة أثيبى بودٌ قبل إحدى البوائقِ
أثيبى بود قبل أن تشحطَ النوى وينأى خليطٌ بالحبيبِ المفارق

وأخذا يبكيان ويبكيان.

ثم أقبلوا عليه وضربوا عنقه.. فتقحمت حبيشة وهبطت من خدرها حتى أتت نحوه فالتقمت فاه.. فنزعوا منها رأسه.. وأخذت تضرب نفسها حتى ماتت مكانها.

ويفلت من القوم فتى إلى حيث يوجد رسول الله ﷺ ليخبره بما حدث من سرية خالد.. فتأسى لذلك.. وأنكر على خالد ما فعل.. وأرسل عليًا إلى القوم بإبل ومال.. حتى رضوا.

وتنتهى حياة البطلين العاشقين نهاية مأساوية حزينة.. يغضب لها رسول الله ﷺ نفسه. ومن حوله من المسلمين.. ويعاتب فيها خالد بن الوليد!



مرة بن عبد اللّه

ومعشوقته ليلى

وما كنت أخشى أن تصير بمرة
من الدهر ليلى زوجةً لإران

لقد بُليت ليلى بشر بليةٍ
وقد أنزلت ليلى بدار هوان

مرة بن عبد الله

ترى ما هذا البلاء الذى رآه هذا العاشق يحل بليلى؟

أما هذا العاشق فهو مرة بن عبد الله بن هليل بن يسار.. أحد بنى هلال بن عُصْم بن نصر بن مازن بن خزيمة بن نهد.

وهو شاعر مقل.. لكنه أوقف شعره على عشقه لليلى.

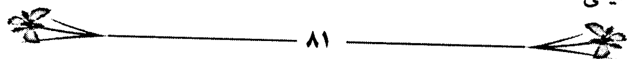
وأما هى.. فهى فتاة حسناء من قومه يقال لها: ليلى بنت زهير بن يزيد بن خالد بن عمرو بن سلمة.

وكانا أولاد عم.. أى أن عشقهما فى إطار التقاليد العربية.. ولكن يبدو أن مرة قد أوقع نفسه فى المحظور حين نطق لسانه شعرًا فى ليلى بنت عمه.

لقد ازداد بها شغفًا وولهًا.. وعبر عن ذلك بشعر يقطر صدقًا وهيامًا، وحينما علم أنها مريضة.. أحس هو الآخر بالمرض. وأنشأ يقول:

أيا بيت ليلى إن ليلى مريضة ... برازان لا خال لديها ولا ابنُ عمْ
ويا بيت ليلى لو شهدتك أعولت ... عليك رجالٌ من فصيح.. ومن عجمْ
ويا بيت ليلى لا يبست ولم تزل ... بلادُك يسقيها من الواكف الديمْ

إنه يجعل نفسه فى موضع المسئولية حين مرضت بنت عمه ليلى.



ليس أمامه إذن وقد استبدَّ به الشغف إلا أن يتقدم لخطبتها.. فأبى أهلها أن يزوجوه.. لما قاله من شعر فيها.

فأقسم ألا يكف عن الشعر.. يتغزل فيها.. ويهجو من يخطبها أو يتزوجها.

وحدث أن خطبها رجل من بنى نهشل يقال له: إران.. فهجاه بأبيات منها:

وما كنت أخشى أن تصير بمرة ... من الدهر ليلى زوجة لإران

لمن ليس ذا لُبٍّ ولا ذا حفيظة ... لعِرْس ولا ذا منطق وبيان

لقد بليت ليلى بشر بليةٍ ... وقد أنزلت ليلى بدار هوان..

من ذا الذى يستمع إلى هذا الهجاء ولا يكف ولا يتراجع؟

لقد أوقف مرة أشعاره عليها لكى يهرب كل رجل يريد أن يقترن بها.. ويكفى نفسه لسان مرة فى الهجاء.

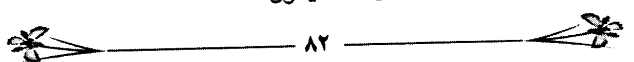
أى سلاح هذا الذى ارتضاه الشاعر دفاعًا عن عشقه؟ إنه سلاح لم نعهده من قبل بهذا الإصرار والاستمرار.

لكن رجلاً يسمى المنجاب بن عبد الله بن الهيثم من بنى زُوَىًّ تقدم يخطبها وأسرع فى الاقتران بها دون أن يسمع إلى هجاء مرة.. ودون أن يلقى له بالاً ولا اهتمامًا.

يا لحسرة العاشق! لكأن سلاحه صدئ فى مواجهة غرمائه.

ولم يكتف زوجها بالاقتران بها.. بل رحل بها إلى (برازان) بعيدًا عن عين مرة ويبدو أنها لم تتحمل العيش مع هذا الزوج.. فماتت كمدًا وحسرة فى برازان.

وجاء رجلان ينعيان ليلى لقومها.. وكان فيهم مرة جالسًا.. فأغمى عليه وحينما أفاق أنشأ يقول:



أيا ناعيىْ ليلى أما كان واحد	من الناس ينعاها إلىَّ سواكما
ويا ناعيى ليلى ألم تكُ جيرة	ندامى ذوى حق فألا نهاكما
ويا ناعيى ليلى لقد هجتما لنا	تجاوُبَ نْوح فى الديار كلاكما
ويا ناعيى ليلى لجلت مصيبةً	بنا فقْدُ ليلى لا أُمرَّت قواكما
ولا عشتما إلا حليفى بليةٍ	ولا مت حتى يُشترى كفناكما
فأشمت والأيام فيها بوائقٌ	بموتكما إنى أحب رداكما

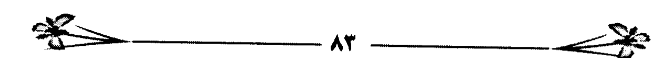
إلى هذا الحد كان التطرف النفسى للشاعر العاشق.. حتى إنه تمنى الموت للناعيين لمجرد أنهما أبلغا القوم بموت ليلى.

ويظل مرة يرثى ليلى.. ويمعن فى الحزن والأسى.. حتى رحل يقف على قبرها وينشئ قائلاً:

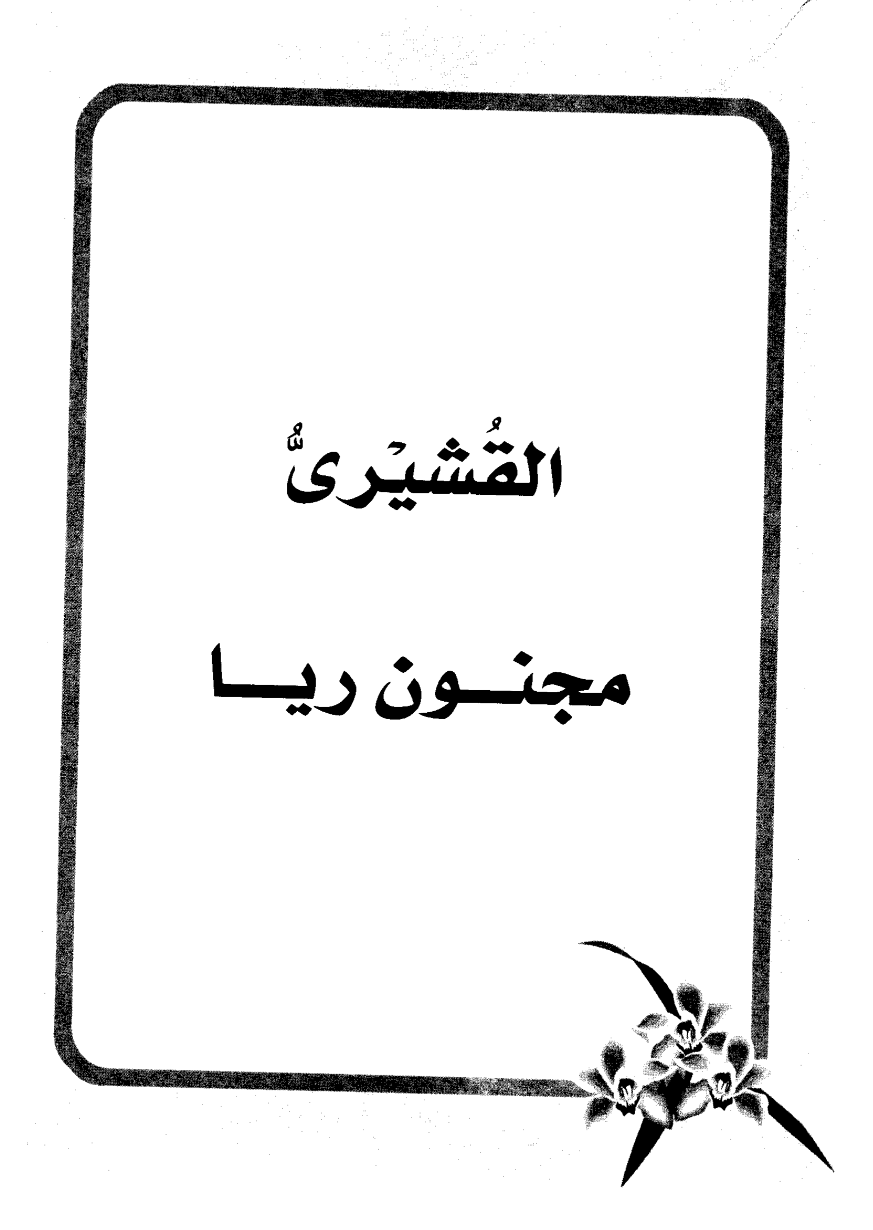
أيا قبر ليلى لا يبست ولا تزل	بلادك تسقيها من الواكف الديم
ويا قبر ليلى غيبت عنك أمها	وخالتها والناصحون ذوو الذممْ
ويا قبر ليلى كم جمال تكنه	وكم حُزْت منها من عفاف ومن كرمْ

وأخذ يندبها.. ويكب وجهه على قبرها.. وظل ملازمًا لقبرها يغدو ويروح ويبكى وينوح.. حتى لحق بها.

وتنتهى قصة عاشق مجنون.. أوقف شعره سلاحًا يهجو به كل من يقترب من حمى معشوقته.. حتى لو كان هو الناعى لها.







القُشَيْرِيُّ

مجنـون ريـا

بكت عينى اليسرى فلما زجرتُها
عن الجهل بعد الحِلْم أسبلتا معًا

حننت إلى ريًّا ونفسُك باعدت
مزارَك من ريًّا وشِعْباكُمَا معًا

القشيرى

واحد من الشعراء المتيمين الذين عاشوا العصر الأموى حاملاً معه بقايا التقاليد العربية القديمة نتيجة استغراق العرب - فى البادية - فى حياة اجتماعية قبلية لا تتيح ما تتيحه حياة الحضر.

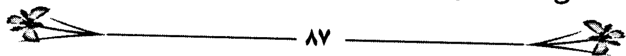
لقد عاش المتيمون حياة العشق بصورة أقرب إلى حياة العذريين.. ولكنها حياة تلونت بما اتسم به المجتمع القبلى من قيود وأحلام مستحيلة.

وكما كانت الحروب تقوم على أتفه الأسباب.. كان التفريق بين العاشق ومحبوبته بلا منطق مقبول.. اللهم إلا العناد أو التعصب أو الهوى.

لقد تعلق المتيمون بمثل عليا يرونها فيمن يصرْنَ حبيبات.. إن الدنيا جميعها تتجسد فى الحبيبة.. والحياة والموت والطموح والشعر جميعًا تنبثق من عيون المحبوبة.. ومن وصلها وقربها.

ويبدو أن الشعراء العشاق كانوا لا يطيقون مجرد فكرة أن يستبدلوا محبوبة بأخرى.. فقد انغلق القلب على واحدة فحسب.. وعلى العاشق أن يتعبد ويخلص ويقف بحياته كلها على باب هذه العاطفة.

على هذا النحو كانت قصة القشيرى وحبيبته ريا.





أما القُشَيْرى فهو الصِّمَّةُ بن عبد الله بن الطفيل بن قشير بن كعب بن مضر بن نزار.. شاعر إسلامى بدوى مقل.. من شعراء الدولة الأموية.. ولجده قرة بن هبيرة صحبة بالنبى ﷺ وهو أحد وفود العرب الوافدين على الرسول الكريم ﷺ.

وينشأ الصمة فى بيت أبيه.. وبجواره بيت عمه.. وفيه ابنة عمه الحسناء ريا.. رعيا معًا صغارًا.. ولعبا معًا.. وأحب كل منهما الآخر.

ولما نضجا.. وشبًا.. ذهب الصمة إلى عمه خاطبًا..

فاشتط عمه وبالغ فى المهر.. وقال:

لا أزوجكما إلا على كذا.. وكذا من الإبل.

وعاد الصمة إلى أبيه شاكيًا ما لاقاه من عمه.. طالبًا أن يساعده.. فاستدعى أبوه أخاه وأمره أن يسوق الإبل إلى عمه وفاء لمهر أخيه الصمة.. فلما جاء بها عدَّها عمه.. فوجدها تنقص بعيرًا فقال:

- لا آخذها إلا كاملة..

وغضب أبو الصمة.. وحلف ألا يزيده على ما أرسله شيئًا.

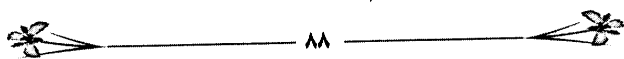
وكما عاند عم الصمة.. عاند أبوه.

لك الله يا صديقنا الصمة.. يفعلها الكبار.. ويقع فيها الصغار كما يقولون!

لقد أدرك الصمة أن كلاً من أبيه وعمه لا يدركان ما به.

ويدخل الصمة على أبيه غاضبًا.. فقال له أبوه: ما وراءك يا ولدى.. أرأيت ما يفعله عمك؟!

قال الصمة: ورأيت ما تفعله أنت أيضًا يا أبى.. تا الله ما رأيت قط ألأم منكما.. وإنى لألأم منكما إن أقمت بينكما.



ثم ركب الصمة ناقته.. فأدركه أخوه وأخذ يسرِّى عنه.

فقالت بنت عمه حينما رأته على تلك الحال:

- ما رأيت كاليوم رجلاً باعته عشيرته بأبْعِرة.!

وتتزوج ريا رجلاً آخر.. وكان زوجها قصيرًا قبيحًا.. فأخذ يهجوه ويسخر منه قائلاً:

فإن تنكحوها عامرًا لاطلاعكم إليه يدهدهكم برجليه عامر

فلما دخل عليها زوجها عامر بن بشر.. وجد الصمة بها وجدًا شديدًا وحزن عليها.

ويجتمع عليه أبوه وعشيرته.. ويدفعونه إلى الاقتران بغيرها.. فزوجوه امرأة منهم يقال لها جبرة بنت وحشى..

ولم يستمر زواجهما وقتًا طويلاً.. حتى خلفها ورحل إلى الشام غاضبًا على قومه.. قائلاً لها:

كلى التمر حتى تهرم النخل واضفِرى خِطامَكِ ما تدرين ما اليومُ من أمسِ

ويعيش الصمة بقية عمره ذاكرًا حبيبته ريا:

إذا ما أتتنا الريحُ من نحو أرضكم أتتنا برياكم فطاب هبوبُها

أتتنا بريح المسك خالط عنبرًا وريح الخزامى باكرتها جنوبُها

ويحن الصِّمة إلى ريا.. لا يذوق النوم ولا الراحة:

حننتَ إلى ريا ونفسُك باعدت مزارك من ريا وشعباكما معا

ثم يقول:

وأذكر أيام الحمى ثم أنثنى على كبدى من خشية أن تصدَّعا

فليست عشيات الحمى برواجعٍ عليك ولكن خَلِّ عينيك تدمَعا

ويدركه بعض أصدقائه وهو فى حال شديدة الأسى.. يبكى ويخاطب نفسه ويقول:

– لا والله ما صدقتك فيما قالت:

فقال الصديق: من تعنى؟ ويحك! أجننت؟!

قال: أعنى التى أقول فيها:

أما وجلال الله لو تذكريننى   كذكريك ما كفكفتِ للعين مدمعا

فقالت بلى والله ذكرًا لو انه   يُصبُّ على صُمِّ الصَّفا لتصدعا

ثم يبكى بكاءً مرًّا ويقول:

إذا نأتْ لم تفارقنى علاقتها   وإن دنت فصدود العاتب الزارى

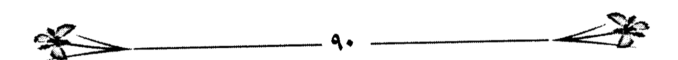
فحال عينى من يوميك واحدة   تبكى لفرط صدود أو نوى دارِ

ويطول مقام الصمة فى غربته عن قومه.. ويشتاق إلى ريا.. ويندم لفعلته ويمر به بعض القوم وهو مطروح فى بستان يشكو الألم والسقم.. فدنوا إليه وهو فى لحظاته الأخيرة.. فإذا هو يهمس فى صوت خفى:

تعزَّ بصبرٍ لا وجدِّك لا ترى   سنام الحمى أخرى الليالى الغوابرِ

كأن فؤادى من تذكره الحِمى   وأهل الحمى يهفو به ريش طائر

فما زال يردد هذين البيتين حتى فاضت نفسه.. لتغلق صفحة من صفحات الحب المتيم الذى يقارب حب العذريين.. لكنه يسبقهم فى نزعاته واشتعاله.





عُرْوة بن حزام

رائد العذريين المجانين

حـلـفتُ بـرب السـاجـديـن لـربـهـم
خشـوعًـا وفـوق السـاجـديـن رقـيبُ

لـئـن كـان بـرد الماء حـرّان صـاديًـا
إلىّ حـبـيـبـا.. إنـهـا لحبـيبُ

عروة بن حزام

(١)

من أقدم قصص العذريين تاريخًا.

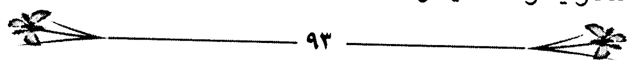
أما مسرحها المكانى فكان فى أرض عذرة.

وأما رجلها المتيم فهو عروة بن حزام بن مهاصر العذرى من عذرة بن نهد.. أحد الشعراء الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، ولم يدرك العصر الأموى لأنه مات عام ٣٠ هـ.. ودفن بوادى القُرى.

ويذكر له التاريخ أنه أول عاشق مجنون. مات بالهجر من العذريين.. حتى ضرب به المثل بين العرب.. ولا يكاد يعرف له شعر إلا فى معشوقته عفراء بنت عمه عِقال بن مهاصر.

هنيئًا لك يا عروة أن بدأ جنون بنى عذرة بك.. ولهذا شاعت بين الناس أخبارك.. وأوشكت أن تصبح بينهم شخصية شعبية يلعب الرواة بخيالهم فى نسج أخبارها.. حتى لتبلغ أحيانًا حد التناقض.. وأحيانًا أخرى حد المبالغة..

وتجمع كثير من المصادر على ذكر هذه المبالغات.. لكن رواية الأصفهانى فى كتابه الأغانى والتى تستقى أخبارها من الأسباط بن عيسى.. قد وجدها الأصفهانى أكثر الروايات معقولية ومصداقية واتساقًا.



(٢)

كان حزام بن مهاصر قد حضرته الوفاة.. تاركًا ولده عروة صغيرًا لا معين له.. فضمه عمه عِقال إلى رعايته.

وكان لعقال طفلة صغيرة فى عمر عروة هى عفراء.. ولهذا نشأ عروة وعفراء فى بيت عقال يلعبان معًا.. ويذهبان معًا.. ويعودان معًا.. حتى ألف كل منهما الآخر ألفةً شديدة.

وكان عقال يسر لما وصل إليه عروة وعفراء من الألفة والمحبة.

ويومًا يدخل الطفل عروة على عمه عِقال بعد أن يستأذن فيبادره عقال:

– مرحبًا بك يا ولدى.. هل من حاجة فأؤديها لك؟

وعلى استحياء شديد يرد عروة:

– شكرًا لك يا عماه.. إن ما تفعله يشعرنى حقًا بالراحة والسعادة..

– إنك فى بيتك يا ولدى.. وعفراء أختك..

– أخشى أن أكون قد أثقلت عليك وعليها يا عماه..

– كيف يا ولدى وأنا أبشرك بعفراء إن شاء الله.. فلن أجد أجدر منك بها حينما تكبران.

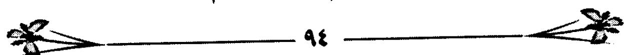
– أحقًا تقول يا عماه..؟

– أجل يا ولدى.. بقى لكما عام واحد.. وتلحق أنت بالرجال.. وتلحق عفراء بالنساء.

وينطلق عروة إلى عفراء يبشّرها بما صرح به أبوها.

– آه يا عفراء.. لو تحقق الحلم.

ألست معى أن القدر قد رسم لنا ما نحلم به؟



قالت عفراء على استحياء:

– ربما يا عروة.

– ألا تلاحظين معى ما ألاحظ؟

– لا أفهم.

– إن أول حرف من اسمينا واحد.. أليست هذه أولى البشائر؟ وهنا بدت عفراء كأن شيئًا ما طفا على ذاكرتها فأغضبها.. إنها لم توافقه على هذا القول.. لكنها تحركت خطوتينِ تعبث بأوراق إحدى الأشجار الصغيرة.

ويدركها عروة: ماذا بك يا عفراء؟

– يبدو أنك تقول نفس الشىء لابنة خالك عبلة.. إن أول حرف من اسمها أيضًا يوافق أول حرف من اسمك.

علت ضحكة مجلجلة من قلب الصغير.. جعلها تستدير إليه.. فيلاحقها.

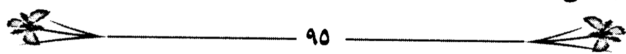
– أمجنونة أنت.. أين عبلة منك يا عفراء.. هل تربيت معها.. هل ألقاها كما ألقاك.. أيجمعنا حوار دائم كما نفعل؟

جرت عفراء من أمامه.. وجرى عروة وراءها.. يلعبان.. ويقضيان يومهما فى سعادة وطفولة بريئة.

(٣)

ويلتحق عروة بالرجال.. وتلتحق عفراء بالنساء.. وفى وجدان كل منهما أحلام وأحلام.. لا يشوبها ظل من المستحيل.

ولأن حال العاشق دائمًا لا يقر له قرار.. أخذ عروة يعبر عن هذه التحولات الوجدانية فى بعض أبيات من الشعر.. يبوح بها.. ويفرغ فيها ما يقلقه ويحيره.



ويبدو أن الشعر وحده لم يستطع أن يقضى على قلق عروة.. إنه يريد أن يطمئن على حبه.. وأن يستوثق منه.. لكن كيف؟

إن حياءه الشديد لم يعد يجدى فى دفعه إلى سؤال عمه مرة أخرى.. وتذكيره بوعده القديم.

لكن عمه رجل عرف بالصدق والعدالة والحماية والحنان.. والعطف والكرم.. وعروة بالنسبة له من أولاده.. بل قد يكون له لديه قدرٌ خاص لأنه تربى ونشأ مع عفراء.. قرة عين أبيها.

أخذ عروة يفكر فى كل هذا وهو يسير وحيدًا حول ديار قومه فى ليلة مقمرة.. ثم توقف فجأة.. فقد شعر بالتعب.. فأسند ظهره إلى إحدى الربى الصغيرة.. وأخذ يسدد عينيه إلى القمر.. ويحاوره فى صمت طويل.

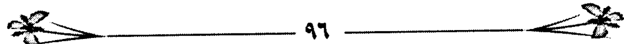
ثم تلمع فى ذهنه فكرة.

إن له عمةً تحبه وتحنو عليه.. وهى أيضًا قريبة من قلب عمه عقال.. فلماذا لا يفصح لها عن قلقه.. فربما تستطيع أن تفعل من أجله شيئًا.

ولم يدع فكرة أخرى تطغى على هذه الفكرة.. ولهذا انطلق إلى عمته لاهثًا:

– يا عمة.. اعذرينى واعذرى لهفتى واستحيائى.. ولولا أننى ضقت ذرعًا بما أنا فيه.. ما أسرعت إليك.

ويبوح عروة لعمته بقلقه وحيرته.. وتعده خيرًا.

(٤)

أما عروة فقد عاد إلى غرفته يتوهم ما سوف يكون من أمر هذا اللقاء المرتقب بين عمه وعمته.

وأما عمته فتدخل على أخيها عقال قائلة:

– يا أخى.. لقد أتيتك فى حاجة.. وأحب ألا أعود بدونها.

قال لها عقال:

– ماذا وراءك يا أختاه.. ووالله لا تعودين بغيرها؟

قالت:

– حاجتى أن تزوج عروة ابن أخيك بابنتك عفراء.. وقد وعدته سابقًا.

قال عقال بعد صمت قصير:

– لقد جئتنى فى أمر وعدت به سابقًا.. وإنى لأرى عروة ولدنا.. وما نستطيع أن ننأى عنه.. ولا هو من الرجال الذين لا يرغب فيهم.. لكنه يا أختاه.. ليس بذى مال.

قالت أخته:

– وماذا يعنى المال.. وأنت منه هكذا.. وهو منك هكذا؟

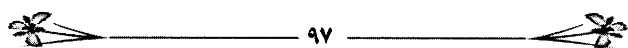
قال عقال:

– صدقت.. ورددت بلا خيبة يا أختاه.

وتطير العمة إلى ابن أخيها عروة الذى تطيب نفسه لما انتهى إليه هذا اللقاء.

لكن الأمر لم ينته عند ذلك.

فقد كانت أم عفراء لا تحب عروة.. ولا تريد أن يكون له مع ابنتها شأن.. إنها أم تطمع فى زوج لابنتها ذى مال كثير.. وحسب وفير.. ولا يتحقق ذلك فى عروة.



إنها لا شك من أشد العقبات فى طريق عروة.

وتنمو هذه العقبة فى قلب أم عفراء لتكبر يومًا بعد يوم فى ناظرى عروة.

وذات يوم اخترق قلقه أحد الأصدقاء.

– أتدرى ما حدث يا عروة؟

– خيرًا يا أخى؟

– إنه أمر لا ينبئ بالخير يا عروة.. لقد أقبل على عمك عقال.. رجل من قومه ذو يسار ومال كثير.

– ماذا؟ أتعنى أنه..؟

أكمل صديقه..

– خطب عفراء.. ورضيت أمها بهذا.

ويطغى على عروة هم شديد.. وأحس أن الدنيا تضيق عليه.. وأن أم عفراء لاتزال تضمر له الكراهية.

ويظل فى عزلته أيامًا يفكر.. وهو حزين مهموم.

(٥)

لا مفر إذن من دفع نفسه فى الجحيم من أجل عفراء.

أسرع إلى عمه.. وكان يجلس إلى بعض أصحابه.. فلم ينتظر حتى يغادروا مجلسه، بل اقتحم عليهم المجلس.. منحنيًا على يد عمه يقبلها وهو يقول والدمع يملأ عينيه:

– يا عم.. لقد عرفت حقى وقرابتى.. وإنى ولدك.. ربيتنى فى حجرك.. وآثرتنى بوعدك فى عفراء.



وقد بلغنى يا عم أن رجلاً ذا مال ويسار يخطب عفراء.. فإن لبَّيتَ له طلْبته قتلتنى.. وسفكت دمى.. وإنى أناشدك الله ورحمى وحقى لديك ألا تستجيب له.

ورق له قلبه.. ورق له أيضًا قلوب الحاضرين.. فربت عمه عليه.. وقال:

– هون من حزنك يا ولدى وتعقل.. وإنك تدرى أنك معدم.. وحالنا قريبة من حالك.. ولن أخرج عفراء إلا لك.. لكنك تعرف أمها وما تنوى عليه.. إنها تأبى أن تزوجها إلا بمهر غال.

ويستأذن عروة فى محادثة أم عفراء.

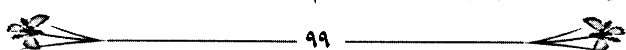
ويبدأ حواره معها فى ملاطفة وهدوء.. لكن الأم لم تكن تملك إلا هذا القلب الصخرى الذى تصطدم به أحلام العاشق المتيم. إنها تستجيب بشروط.

إنها تطلب مهرًا ليس مؤجلاً.. بل يساق نصفه على الأقل إليها.. ولم يملك عروة إلا أن يعدها بذلك.. وعلم أنه لا جدوى من القرابة ولا غيرها.. فالمال هو الشرط الأول والأخير.

لا مفر إذن من البحث عن المال..

ويلتقى عروة وعفراء.. ليتعاهدا على الصبر والحب معًا.. ثم يودعها إلى رحيل طال أو قصر. لقد قصد عروة ابن عمٍّ له ذا يسار ومال يقيم فى اليمن.. وصحبه فى طريقه فتيان من بنى هلال بن عامر كانا يصادقانه.

لقد كانت رحلة طويلة.. حاول صاحباه أن يسريا عنه أو يحدثاه.. وهو لا يرد ولا يفهم.. لقد كان عقله كله فى عفراء..



ووجدانه كله فى عفراء. ولم يفق من همه هذا إلا بعد أن لقى ابن عمه.. وقص عليه قصته.. فأعطاه ابن عمه ما أراد.. مائة من الإبل.. ساقها الثلاثة إلى قومهم.

لقد قضى الثلاثة وقتًا طويلاً فى غيابهم عن حيهم.. حتى ظن البعض أنهم لن يعودوا.. أو هكذا تمنت أم عفراء.

(٦)

وحدث فى أثناء غياب عروة أن قدم الحى رجل من بنى أمية.. وأخذ ينحر الإبل ويهب المال ويطعم الناس.

ويرى هذا الرجل عفراء فتعجبه ويسأل عن أبيها.. ويدلونه عليه.. فيخطبها لنفسه.. لكن الشيخ تذكر وعده لابن أخيه.. ثم يجرى بينه وبين الرجل هذا الحوار:

قال عقال للرجل الغريب:

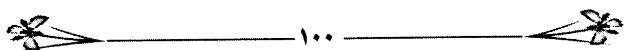
– لقد رأينا ثراءك وسعة كرمك.. وجودك على الناس.. نعم لن نجد أعز منك لابنتنا.

– وأنا من أجل ابنتك أهب ما تريد من المهر.. ولن أرد لك مطلبًا.

– لكن لى وعدًا وعدته لابن أخى عروة.. فقد رحل ليجىء بمهره لعفراء.. ولا أريد أن يقول عنى العرب: إننى أخلفت وعدى مع ابن أخى.

– وهل مهر ابن أخيك يعدل ما أملك أيها الشيخ؟!

– وعدى لابن أخى أسبق من مهرك لى.



ويدل بعض الناس هذا الرجل على أم عفراء.. لما عرفوه عنها من حبها للمال ورفضها لعروة.. فيذهب الرجل إليها.. ليوافق عندها قبولاً.. وتجدها فرصة سانحة لتحقيق ما تريد.

وتدخل على زوجها لتقول له:

– ماذا ترى فى عروة من خير حتى تحبس ابنتى عليه.. وقد جاءها هذا الثرى الكريم يطرق بابها.

إنك لا تدرى أحيٌّ عروة أم ميت.. وهل سينقلب إليك بخير أم لا.. فتحرم ابنتك من الخير الحاضر.. والرزق الموفور.. فكر يا أبا عفراء..

ويحار عقال بين وعده لعروة وانقطاع أخباره.. وبين إغراء المال وإلحاح زوجته.

ولم تزل أم عفراء تلح على زوجها حتى لان قلبه وقال:

– لقد ذهب الرجل الآن عن حَيِّنا.. فإذا عاد خاطبًا أجبته! ولم تنتظر الأم.. بل أسرعت ترسل إلى الرجل.. أن يعود خاطبًا.

وسرعان ما حضر الرجل بإبله التى ينحرها.. وماله الذى يمنحه الفقراء.. وطعامه الذى يوزعه على الناس.

ثم أولم وليمة كبيرة لأشراف الحى ومنهم عقال.. فلما انتهوا من الطعام أعاد الرجل طلبه فى خطبة عفراء.

فلم يملك أبو عفراء إلا الاستجابة.. خاضعًا.. خجلاً.. وساق إليه عفراء زوجة على غير رضًا منها.. ورحل الرجل بها إلى الشام.

لقد انتصر المال على الحب.. والطمع على العاطفة.. وانهزمت كل القيم الإنسانية أمام إغراء الثراء والحسب الوهمى.



وتنتقل عفراء وهى غارقة فى أحزانها إلى بيت الرجل الثرى.. وكأنها واحدة من تلك السلع التى يتاجر فيها زوجها.

وتستسلم لأقدارها ولسان حالها يلهج بقولها:

يا عُرْو إن الحى قد نقضوا   عهد الإله وحاولوا الغدرا

هذا هو الموقف صراحة يا عروة.. لخّصتْه لك معشوقتك المخلصة.. لكن ليتها كانت تملك مصيرها أمام طمع أمها ومؤامرتها أن تكون لهذا الرجل الذى يدفع أكثر.

لقد ضربت أمها بالقيم جميعها عرض الحائط.. ووضعت زوجها فى مأزق شديد أمام كبراء القوم.. حتى استجاب وفى نفسه شىء.. حسبه أنه وعد ابن أخيه بأن عفراء له.. وأنه سوف يحتفظ بها حتى يعود من سفره بما يجىء به من المهر.. لكن شيئًا من هذا لم يبق بين يدى الأب فقد نفذ السهم.. وانتهى الأمر.. بلا عودة.

(٧)

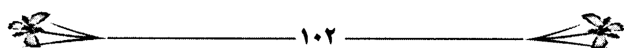
ويعتزل عقال الناس مفكرًا فى الأمر.. وتحاول زوجته أن تخلصه من هذه الوساوس.

كان يسأل نفسه كل ساعة وكل لحظة: هب أن ابن أخى عاد ومعه مهره الذى سافر من أجله.. ماذا أفعل؟

وواتته فكرة للخروج من هذا المأزق.

جمع الحى.. وسألهم أن يكتموا أمر عفراء عن عروة حين يعود.. وأن يقولوا: إنها ماتت.

وانطلق مع بعض الحى إلى قبر عتيق فجدده وسواه.. وكأنه قبر عفراء.



وتمضى الأيام.. وعقال يود لو أن عروة يطول سفره.. أو لا يعود.. فتنساه ذاكرة الحى.

حتى جاء يوم شديد الحرارة من أيام الصيف.. وها هى ذى خلف الروابى المنخفضة تثور زوبعة من رمال الصحراء.

ويخرج أطفال الحى وشبابه يستطلعون الأمر.

– مرحبًا بك يا عروة.. وعودة حميدة يا بنى.

عانقه عمه عقال عناقًا حارًا.. يكاد لا تشوبه شائبة.

– لم أتأخر عليك يا عماه.. إن الشهور الستة لم تمر بعد.. بقى نصف شهر عليها.. وها هو ذا مهرى لعفراء.. مائة من الإبل.. لعلك ترضى.

ويصحبه عمه إلى داخل البيت:

– عليك يا ولدى أن تزيل غبار السفر.. وتستحم أولاً ثم نتحدث فى الأمر.

– لا عليك يا عماه.. أريد فقط أن ترضى عما فعلت.

– أنا راض يا ولدى.. لكن الأمور ليست كما تظن.

نهض عروة من مكانه كالممسوس صائحًا:

– ماذا تعنى يا عماه..؟ ماذا حدث؟

نظر إليه عمه عقال مليًا.. ثم افتعل البكاء وتحشرج صوته قائلاً:

– عفراء يا ولدى.. اختارها الله إلى جواره.

– ماذا..؟! متى؟

– منذ شهر يا ولدى..



ويسقط عروة غائبًا عن الوعى لبعض الوقت.. ثم يفيق ولسانه لا يعرف من الكلام إلا «عفراء».

ويصحبه عمه إلى قبر عفراء الموهوم.. ويبكى عروة.. كما لم يبك من قبل.. ويتركه عمه جوار القبر مضنى هالكًا.

ويظل أيامًا يجاور القبر.. حتى جاءته جارية من جوارى الحى.. وشاهدت حزنه ونحوله.. وحاله التى تقترب من الموت والفناء.. فأشفقت عليه.. واقتربت منه.. وأخذت تحكى له حقيقة ما حدث.

وينطلق عروة إلى الشام حيث عفراء وزوجها.

وأخذ يسأل عن هذا الرجل حتى دلوه عليه.. فدخل عروة عليه وأخفى نسبه.. وانتسب إلى عدنان.. فرحب به الرجل وأكرمه وأحسن ضيافته.. ومكث عنده أيامًا حتى أنس له.. واطمأن إليه.

وكانت تدخل عليه كل يوم جارية الرجل بالطعام.. فقال لها يومًا:

– هل لك فى عمل تفعلينه من أجلى.

قالت الجارية: إذا كان فى وسعى ذلك.. أفعله.

قال: بل هو فى وسعك.

عليك فقط أن تأخذى خاتمى هذا وتعطيه لمولاتك عفراء.

وهنا صاحت الجارية فى وجه عروة:

– ماذا تقول أيها الرجل؟! أما تستحى أن تقول هذا لى؟! يا لسوء ما تظن!

واستطاع عروة أن يهدئ من ثائرة الجارية.. قائلاً:

– ويحك إنها والله بنت عمى.. وما أحد منا إلا وهو أعز على صاحبه من الناس جميعًا.. ضعى هذا الخاتم فى إناء لبنها

فى الصباح.. فإن اكتشفت ذلك ولامتك.. قولى لها: لقد شرب ضيفكم فى الإناء قبلك يا سيدتى.. ولعل الخاتم سقط منه فيه.

وبدا على الجارية الاقتناع بما قاله عروة.. وفعلت ما طلبه منها.. فلما شربت عفراء اللبن رأت الخاتم.. فعرفته.. فشهقت.. وسألت الجارية أن تخبرها بحقيقة الأمر.. فأخبرتها..

ماذا تفعل عفراء.. لقد تملكتها الحيرة بين زوج منحها الراحة والثراء..

وبين حبيب لا يزال يملك عليها قلبها.

(٨)

ظلت عفراء فى حيرة طوال يومها حتى عاد زوجها من الخارج فبادرته بقولها:

– أتدرى من ضيفك هذا؟

قال: نعم.. إنه من عدنان.

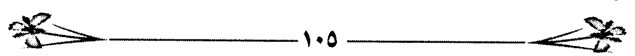
قالت: كلا والله.. ليس منهم.. بل هو عروة بن حزام ابن عمى.. وقد كتمك نفسه حياءً منك.

فأرسل الرجل إلى عروة.. وعاتبه على إخفاء حقيقته عنه.. وقال له:

– على الرحب والسعة يا أخى.. والله لا تبرح هذا المكان أبداً.

وخرج الزوج وترك عروة وعفراء وحدهما.. وأوصى خادمة له بالاستماع إليهما فى الخفاء.. وإعادة ما تسمعه منهما عليه.

ويختلى عروة بعفراء.. ويتشاكيان.. ويتبادلان الشوق والذكريات.. بعد فراق طويل.



وتطول الشكوى.. وهو يبكى أحر البكاء.. وتبادله بكاء ببكاء.. وشوقًا بشوق.

ورأت عفراء نحول جسد عروة.. وأشفقت عليه.. وخافت أن يفقد حياته إذا ظل هكذا.

ثم أتت بشراب وسألته أن يشربه فقال:

– والله ما دخل جوفى حرام قط.. ولا ارتكبته منذ رأتك عيناى قبل رحيلى إلى اليمن.. ولو كنت ممن يستحلون الحرام.. لكنت قد استحللته منك أنت يا عفراء.. لكن يشهد الله أننى لا أرغب فى غضبه.. فأنت حظى من الدنيا.. وقد ذهبت منى.. وذهبت عنك.. فلا حياة بى بعدك.. وقد أكرمنى زوجك وأحسن لقائى.. وأنا أستحى منه.. ووالله لا أظل هنا بعد أن علم من أكون منك. إننى أدرك أننى سوف أرحل إلى منيَّتى.. لأنك الحياة لى.. وبعدى عنك هو الموت بعينه.

وتباكيًا بكاءً مرًّا.. ثم انصرف عنها إلى حال سبيله.

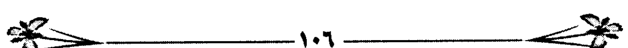
فلما جاء زوجها أخبرته الخادمة بما جرى بين عروة وعفراء.. فقال لعفراء:

– امنعى ابن عمك من الرحيل.

فقالت: لن أستطيع ذلك.. فوالله لهو أكرم وأشد حياء من أن يقيم هنا بعدما جرى بينكما.

فاستدعاه وقال له:

– يا أخى عروة.. اتق الله فى نفسك.. فقد عرفت قصتك.. وإنك إن رحلت.. مت.. ووالله لن أمنعك من الجلوس إلى عفراء أبدا وإن شئت أفارقها وأنزل لك عنها.



قال عروة:

– شكرًا لك يا سيدى.. على هذا الكرم وهذا الإيثار.. ووالله لقد حملت نفسى على الصبر.. وقد يئست من حياتى.. ورأيت أن اليأس ينسينى ما كان.. وإنى لعازم على العودة إلى أهلى لبعض شئونى.. فإذا وجدت نفسى قادرة.. ظللت.. وإلا رجعت إليكم وزرتكم حتى يقضى الله من أمرى ما يشاء.

ويزوده الرجل بالطعام.. ويودعه إلى رحلة العودة القاسية.

(٩)

ويحاول عروة أن يتماسك.. وأن يقنع نفسه بالحياة بدون عفراء.. لكنه لم يستطع.

لقد أصابته انتكاسة شديدة.. جعلته يفقد توازنه.. فيغيب عن الناس.. حتى يكاد قلبه يتوقف عن الخفق.

وكان كلما أصيب بذلك.. ألقوا على وجهه خمارًا لعفراء زودته إياه.. فيفيق من غيابه.

وكان طريق العودة طويلاً.. مر فيه على اليمامة.. حيث لقيه هناك عرافها ابن مكحول.. فما إن رآه العراف حتى جلس إليه.. وسأله عما به وهل هو خَبَل.. أم جنون.

فقال له عروة: ألك فى الأوجاع يا سيدى.

قال العراف: نعم.

فأنشأ عروة يقول:

وما بى من خبل وما بى جنةٌ ... ولكن عمى يا أُخَىَّ كذوبُ

أقول لعراف اليمامة داونى ... فإنك إن داويتنى لطبيبُ



فـواكـبـدا أمست رفـاتـا كـأنما يـلـذَعـهـا بـالموقـدات لـهـيبُ
عشـيـة لا عـفـراء منك بـعـيـدة فتسلو.. ولا عفراء منك قريبُ
عشية لا خلفى مكرّ ولا الـهوى أمامى ولا يهوى هواى غريبُ
فوالله لا أنساك ما هبت الصَّبا وما عقبتها فى الرياح جنوبُ
وإنـى لـتـغـشـانـى لـذاكراك هِزَّةٌ لـها بين جلدى والـعظام دبيبُ

ولم يستطع عراف اليمامة أن يداويه بشىء.

ويعود إلى قومه.. بين الحياة والموت..

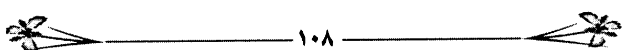
ويعوده أهل الحى.. ويحارون فى حالته.. فمنهم من يقول: إنه مس من الجن.. ومنهم من يقول: إنه مجنون العقل.. ومنهم من يقول: إن مرضه لا يشفى.

ويشير بعض أهله بطبيب فى أرض حَجْر فيذهبون به إليه.. ويخفق الطبيب فى علاجه.. وهو يقول:

– والله مـا دوائى إلا بشخص فى أرض الشـام.. ثم ينشد قـولـه:

جعلت لـعراف اليمامة حُكمهُ وعرَّاف حجر إن هما شفيانى
فما تركا من رُقية يعلمانها ولا سـلـوة إلا بـهـا سـقـيـانـى
فقالا: شفاك الله والله ما لنا بما حملت منك الضلوعُ يدانِ
فويلى على عفراء ويْلاً كأنه على الصدر والأحشاء حدُّ سِنَان
أحب ابنة الـعُذرى حبًا وإن نـأت ودانيتُ فيها غير ما متدانى
فيارب أنت المستعان على الذى تحملتُ من عفراء منذ زمانِ
كـأن قطاةً عُـلـقت بـجـنـاحـهـا على كبدى من شدة الخفقانِ

ويصب عروة غضبه على عمه الذى خدعه مرتين:



خدعه حين مناه عفراء.. ودفع به إلى آفاق الأرض البعيدة خلف مهرها.. ثم خدعه حين لفّق له قصة موتها.. وتركه فريسة أحزانه ودموعه.

فمضى عروة يهجوه بما ملك من شعر:

فيا عمُ يا ذا الغدْرِ لازلتَ مبتلى   حـلـيـفًـا لـهـم لازم وهـوان
غدرتَ وكان الغدر منك سجيةً   فـألـزمت قلبـى دائـم الخفقـان
وأورثتنى غمًا وكربًا وحسرةً   وأورثت عـيـنـى دائـم الـهـمـلان
فلا زلت ذا شوق إلى من هويته   وقـلـبُـك مـقسـومٌ بـكـل مكـان

ويقضى عروة أيامه بين أمل لاح له ثم ضاع منه إلى الأبد.. وألم يعيش به وقد استقر فى أعماقه إلى الأبد.

وبين الألمين طيف عفراء الذى لا يفارقه ليل نهار.

وكلما مضت أيام صحبه بعض أصدقائه فى رحلة خارج الحى إلى طبيب أو عراف ليعود أكثر ألمًا وجنونًا.

وكان يأتى حياض الماء التى كانت إبل عفراء تردها وهم صغار.. فيلصق صدره بها.. فيقال له:

مهلا يا عروة.. إنك والله تقتل نفسك بما تفعل.. فاتق الله! لكن عروة لا يستمع إلى أحد ويظل فى جنونه حتى يشرف على التلف ويشعر بالموت فيقول:

بى اليأس والداء الهيام سُقيته   فإياك عنى لا يكن بك ما بيا

وينصرف الناس عن عروة.. وجنونه.. ويعوده أهله بين الحين والآخر حتى يئسوا منه.. وها هو ذا عروة فى فناء بيته المنعزل عن حى عذرة.. يراه بعض الناس مستلقيًا على قفاه لم يبق منه

إلا جلد وعظم.. وقد التف حوله أخواته وأمه وخالته.. ولسانه ينشد فى همس:

من كان من أخواتى باكيا أبدا فاليوم إنى أرانى اليوم مقبوضا
يسمعننيه فإنى غير سامعه إذا علوت رقاب القوم معروضا

ويشهق عروة شهقة أخيرة.. ويبلغ النبأ عفراء فتدخل على زوجها قائلة:

– لقد قضى عروة.. يا هناه.. لقد كان من أمر هذا الرجل ما قد علمت.. وما كان والله إلا على الأمر الحسن الجميل.. فإن رأيت أن تأذن لى فأخرج فى نسوة من قومى فنندبه ونبكى عليه.

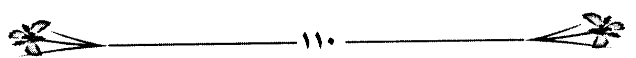
فيأذن زوجها لها بالخروج.. وهى تقول:

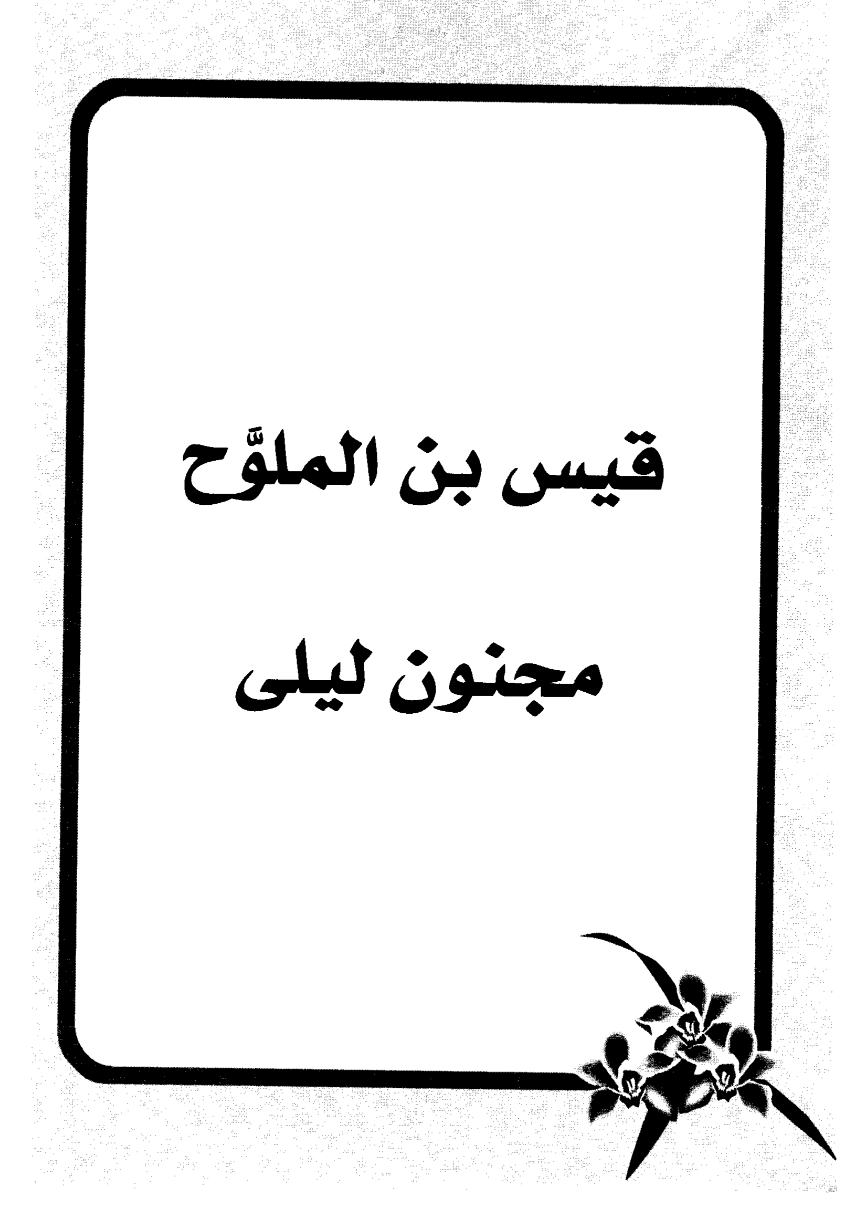
ألا أيها الركب المخبُّون ويحكم بحقٍّ نعيتم عروةَ بن حزامِ
فلا نفع الفتيان بعدك لذة ولا رجعوا من غيبة بسلامِ
وقل للحبالى لا يرجّين غائبًا ولا فرحت من بعده بغلامِ

وتظل عفراء تندب عروة وتبكى عليه حتى ماتت بعده بأيام قلائل.. فلما بلغ الخبر معاوية بن أبى سفيان قال:

لو أنى علمت بحال هذين الحرين الكريمين لجمعت بينهما!

ويأبى خيال القصاص إلا أن يجمع بينهما بعد الموت – وظنه الكثيرون ليس بعيدًا عن الخيال – فقد دفنت عفراء إلى جانب قبر عروة.. ومن القبرين تنبت شجرتان غريبتان لم ير الناس مثلهما من قبل.. تظلان تنموان حتى تلتف إحداهما على الأخرى.. تحقيقًا لأمل قديم حالت الحياة دون تحقيقه وأبى الموت إلا أن يحققه!





قيس بن الملوَّح

مجنون ليلى



لـقـد ثـبَـتَـتْ فـى الـقـلبِ منك مـحـبـةٌ

كـمـا ثـبَـتَـتْ فـى الـراحـتـيـن الأصـابـعُ

وأنتِ الـتـى صـيَّرتِ جسمى زجـاجـةً

تـنـمُّ عـلـى مـا تـحـتـويـه الأضـالـعُ

(المجنون)

(١)

نَجْد..

تلك البقعة التى تتوسط جزيرة العرب... كانت مسرح هذه القصة الغريبة .. ومعنى (نجد) الأرض العالية المرتفعة.. ويحدها من الشمال صحراء النفود... ومن الجنوب الربع الخالى.

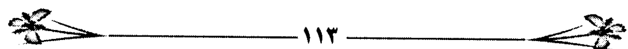
أما صحراء النفود ففيها بعض الواحات التى نشأت حول الآبار والعيون القليلة المتناثرة هنا وهناك.. ويصيبها الغيث بين الحين والآخر ... فيسرع الناس ومعهم أنعامهم يرعون خضرة المطر.

وأما الربع الخالى.. فهو يخلو من الماء ومن مقومات الحياة.. وتكثر رماله وأخطاره.. فالحياة فيه صعبة .. قاسية.

وأما مسرح قصتنا – نجد – فتتوسط المنطقتين.. وتجمع بين الهضاب الصخرية.. والمناطق السهلة الهشة.. والأودية الضحلة .. ومن ثم تتناثر مناطق الخضرة فوق الروابى.. وفى الأودية، كما تكثر الصخور الشامخة الشماء.

وحياة البشر فى نجد.. حياة ظمأ إلى كل شىء.

ظمأ إلى الماء والكلأ..



وظمأ إلى الجمال.. والتأمل فى إبداع الخالق.

وظمأ أكبر إلى الحب.. وسط هذا الجفاف الممتد!

ولهذا قيل عن نجد.. إنها أطيب أرض فى بلاد العرب.. استطاع الإنسان العربى أن يجعلها منطقة الحب والجمال والفصاحة جميعًا..

وزمن أحداث قصتنا يعود إلى أيام الدولة الأموية.. ذلك العصر الذى تميز بأحداث جسام وبتيارات سياسية وغير سياسية وسجلها التاريخ الأدبى بكل دقة.

كان الطفل قيس بن الملوح بن مزاحم.. بن عامر... يرعى الأغنام عند جبل يقال له التوباد..

وفى يوم .. نفرت منه شاة .. فتبعها إلى أن أمسك بها.. وقد بعد قليلا عن أغنامه.

وما كاد يمسك بها حتى نفرت منه مرة أخرى.. وهنا صكّت أذنيه ضحكة ساخرة رقيقة لطفلة ترعى الغنم قريباً منه.. فأسرع يقبض على شاته ويتجه إلى حيث الصوت الضاحك.

إنها ليلى .. بنت عمه مهدى .. بن عامر ..

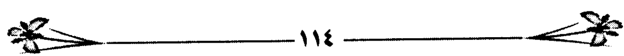
– ما الذى أتى بك إلى هنا أيتها الشقية؟!

قالت ليلى ساخرة:

– لكى أستمتع بما شاهدته الآن.. صبى .. تفر منه شاته؟!

– لكننى قبضت عليها يا بنت العم.

– حسنا .. هذا واجبك.



أخذت تضحك .. وتضحك .. وقيس حائر فيها وفى ضحكها.. اقترب منها قيس .. وكأنه يراها للمرة الأولى.. ونسى تمامًا أنهما.. التقيا.. قبل هذا .. لكنهما كانا بين قومهما.

– اضحكى يا بنت العم.. فوالله لقد أحببتُ ضحكتك..

– أتغازلنى يا قيس؟!

– بل أقول صدقا يا ليلى..

– ألست صغيرًا على الغزل يا بن العم؟!

– إذا كنتِ صغيرةً على الحب... فأنا صغير على الغزل.

صاحت فى اندهاش:

– أتقول الحب؟!

لم ينتبه قيس إلى سؤالها.. لكنه تابع كلامه:

– لكأنى أراكِ لأول مرة يا ليلى.. ألست بنت عمى.. وأنا ابن عمك ونحن نرعى معًا ماشية قومنا؟

– أفق يا قيس.

– بل أسرنى جمالك يا ليلى.

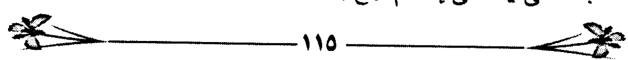
– ألا تخشى أباك.. أو أبى؟

– أنا لا أخشى إلا قلبك يا ليلى.. فإذا صدنى.

قاطعته ليلى:

– لا تكمل يا بن العم.. فوالله لقد سمعت عنك الكثير.. وإنه لحياء الفتاة التى يجعلها لا تبوح بما تود.

– بل بوحى من الآن يا ليلى.. فقد بدأت بوْحى.. بل أحس شيئًا ما بداخلى يقتلنى إذا لم أبح به.



– لعله الشعر يا قيس.

– والله لو كان ... لأجعلنَّه لك وحدك يا ليلى.

– وتذكرنى به .. ويسمعه الناس.. والرائح والغادى؟!

– نعم يا بنت العم.

– تعلم يا قيس أنى بصيرة بالشعر والأدب.

– سأُسمعك يا ليلى ما لم تسمعيه من قبل.

وكاد الحديث يطول .. لولا دعوة القوم لهما بالعودة إلى الديار.. فتواعدا على لقاء الغد..

ولم تكن العرب تنكر حديث الفتى للفتاة.

أما ليلى فكانت جميلة الملامح.. تنم عن ذكاء نادر.. أو كما يقول فيها قيس:

بيضاء باكرها النعيم كأنها ... قمرٌ توسط جنح ليل أسود

موسومة بالحسن ذات حواسد ... إن الحسان مظنة للحسَّدِ

وترى مدامعها ترَقرق مقلة ... سوداء ترغب فى سواد الإثمدِ

خودٌ إذا كثر الكلام تعوَّذت ... بحمى الحياءِ.. وإن تكلمْ تقصدِ

(٢)

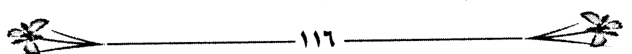
وتدخل ليلى على أمها .. فى سعادة غامرة.

وتحدجها الأم بطرف عينها:

– ماذا بك يا ابنتى؟

ولأن ليلى تربت على الصدق.. والشجاعة.. أجابت:

– رأيت اليوم قيس ابن عمى.



صاحت الأم: تقولين من .. ابن مزاحم؟

– أجل يا أماه.

وسادت لحظات صمت.. قطعتها ليلى:

– هل ارتكبتُ خطأ يا أماه؟

وأقبلت الأم على ابنتها تخفف من قلقها.

– ليس خطأ يا ليلى.. فأنا أعرفك جيدًا.. وأعرف قيسًا كذلك..

– إذن ما الأمر يا أماه؟

شعرت الأم أن عليها أن تقول شيئًا .. لكنها حاولت إخفاء الحقيقة:

– لا شيء .. لا شيء .. يا ليلى.. فقط قلقت عليك.

– ولم اليوم يا أماه .. ألأنى رأيت قيسًا؟

لم ترد الأم .. وحاولت أن تغير مجرى الحديث.

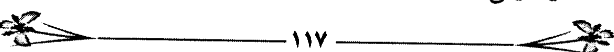
– أعلمت يا ليلى أن خطبة بنت عمك غدًا.. نجلاء يا ليلى.. سوف تكون خطبتها غدًا.. أدعو الله أن يهبنى الحياة وأعيش حتى يوم خطبتك.

....

أدركت ليلى أن أمها تغير الحديث... فألقت بنفسها فى أحضانها باكية:

– إنك تشعريننى اليوم أننى ارتكبت خطأ يا أماه.. فبالله عليك.. هلا أرحتنى.. قولى شيئًا يا أماه ولا تخفى ما تريدين عنى.

– يا ليلى.



قاطتعها ليلى:

– بالله يا أماه.. لقد أقسمت أن أعرف حقيقة الأمر.

قالت الأم فى همس:

– لعن الله من كانوا السبب فى العداوة .

قالت ليلى فى دهشة:

– أية عداوة تعنين يا أماه؟

– عداوة قديمة يا بنتى بين أهلنا وأهل قيس.

– وما ذنبنا نحن يا أماه..؟! وما ذنب الصغار؟! أيتحملون أخطاء الكبار؟!

– هذه هى الحقيقة يا ليلى.

– وأنت؟ أنت يا أماه؟

– يعلم الله يا بنيتى كم أحب أهل قيس.

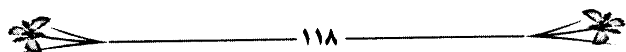
– وأنا أيضا يا أماه.

– ماذا؟

– أقصد أننى لا أكرههم.. ولا نعرف عن هذه العدواة شيئًا أنا وقيس.

وتبيت ليلى تفكر فى هذا الموقف الخطير.. على حين بات قيس فى قبيلته لا يذوق النوم.. إنه ينتظر صباح الغد.. سوف يقوم مبكرًا يسبق ليلى إلى جبل التوباد.. وسوف يقترب بأغنامه من موضع أغنامها.. وسوف يقضى معها يومًا طيبًا جديدًا.

ويلتقى العاشقان الصغيران.. وتصارح ليلى قيسًا بما سمعته من أمها.. ويرد العاشق على معشوقته:



– لكن الحب يا ليلى لا يعترف بالكراهية والبغض. فأية عداوة قديمة ارتكبها الأجداد.. تحل لعنتها علينا؟!

– أنا معك يا قيس..

– لا تسمعى يا ليلى لصوت الكراهية.

يقولون ليلى أهل بيت عداوة ... بنفسى ليلى من عدو وماليا

ولو كان فى ليلى شذا من خصومة ... للوَّيت أعناق المطى الملاويا

ويتفق العاشقان الصغيران على الحب.. وعلى أن ينهيا بين القبيلتين تلك العداوة القديمة، وبينما هما يتناجيان.. مر عليهما فتى من حى ليلى..

فأمطرهما بنظراته الحاقدة الحاسدة، ثم أسرع فى اتجاه حى ليلى.. وكأنه يلوى على خطر.

وهنا تبادل العاشقان نظرة الدهشة والعجب.. ثم قالت ليلى فى ثقة لصاحبها:

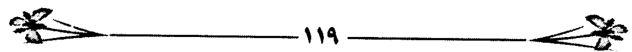
كلانا مظهرٌ للناس بغضًا ... وكلٌ عند صاحبه مكينُ

تبلّغنا العيونُ بما أردنا ... وفى القلبين ثَمَّ هوًى دفين

فلما سمع قيس البيتين شهق وأغمى عليه.. فمكث على ذلك ساعة من الزمان.. وأسرعت ليلى تحضر الماء وترشه فوق وجهه إلى أن أفاق.. وينتشر خبر ليلى وقيس.

أما ليلى.. فتقف حائرة أمام أبيها سيد القوم.. والمسيطر عليها وعلى خطواتها.. لقد هددها بعدم السماح لها بالخروج إلى الجبل.

وتبكى ليلى .. لكن قلب أبيها كان كالصخر.

وأما قيس.. فيلقى نفس التقريع من أبيه.. كيف يسمح لنفسه بالحديث مع ليلى.. وهى من قوم يضمرون العداوة والكراهية لهم؟ ماذا يفعل العاشقان؟

لقد ضُربَ الحصار حولهما أيامًا.. ثم التقيا.

لم يتحكم أحدهما فى أشواقه.. واستجمع قيس شجاعته.. وبدت فى نفسه حاجة إلى معشوقته.

كان يود أن يعرف أين هو فى قلبها.. لكن ليلى – حياء– منعته حاجته.

ويسود صمت طويل بين العاشقين.. بينما تجرى الدموع فى عينى قيس لينشد لها هذه الأبيات:

مضى زمنٌ والناس يستشفعون لى   فهل لى إلى ليلى الغداة شفيعُ
يُضَعِّفنى حُبّيكِ حتى كأننى   من الأهل والمال التليد نزيعُ
ندمتُ على ما كان منى ندامةً   كما ندم المغبونُ حين يبيعُ

هنا أمسكت به ليلى قائلة:

– هون عليك يا بن العم.. فوالله ما فى قلبى إلا أنت..

ويجفف قيس دمعاته.. وتتوقف أبيات شعره.. ويلتقط أنفاسه قائلا:

– إنك لا تعرفين يا ليلى ماذا يكنه قلبى.

– أعرف يا قيس..

وهنا .. نظر قيس إلى السماء وهو يمسك بيد ليلى قائلا:

نهارى نهارُ الناس حتى إذا بدا   لىَ الليلُ هزتنى إليك المضاجعُ
أُقضّى نهارى بالحديث وبالمنى   ويجمعنى والهم بالليل.. جامعُ
لقد ثبتت فى القلب منك محبةٌ   كما ثبتت فى الراحتين الأصابعُ

وينطلق الشاعر العاشق الصغير.. وينمو الحب بينه وبين ليلى.. غير عابئين بما يقوله الناس.. ضاربين عرض الحائط بهذا التاريخ الطويل بين قبيلتيهما من الكراهية والعداوة.

ويشب الصغيران .. مع نمو الحب..

ويتعديان سن الطفولة .. ليبدأ فصل جديد من العشق والشعر.

ويواصل العاشقان حياتهما فى الخفاء.. لكن أشعار قيس سرعان ما تفضح هذا الخفاء.. وذات ليلة.. طرق باب أبى قيس ضيوف.. فرحب بهم أبوه.. ولم يكن فى البيت شىء من سمن.. فاستدعى الأب ولده قيسا.. وقال له:

– اذهب إلى بيت أبى ليلى.. واطلب منه سمنًا.

وقف الصبى مذهولا.

إنه يعرف أن بين أسرته وأسرة ليلى عداوة قديمة.. إذن ربما انتهى كل شىء .. وبهذا لن تجد ليلى.. ولا قيس عقبة أمام حبهما.

دار فى خاطره كل هذا.. فى لحظة عميقة من التأمل.. لكنه مع هذا تجمد فى مكانه غير مصدق.. فاغرًا فاه.. مما دفع أباه إلى حثه على الذهاب.

طوى قيس تلك المسافة الفاصلة بين بيت أبيه وبيت أبى ليلى فى لحظة عابرة كأنه جواد يطير.

وها هو ذا – لاهثًا – يطرق الباب.. ويخرج له أبو ليلى:

– أهلا بك يا ولدى.. ماذا بك؟.. استرح ثم تكلم.

وأخذه من يده ليجلسه إلى جانبه.. ويسأله عما يريد.. ويخبره قيس أن لديهم ضيوفًا.. وليس لديهم السمن.



ويصيح الرجل على ابنته ليلى..

ويصل إلى قلب قيس صوتها ملبية نداء أبيها.

لم يدر قيس ما الذى فعلته ليلى.. وما الذى فعله صوتها وراء الستار فى قلبه.. إنها سوف تدخل على أبيها الآن.. وستفاجأ بوجود قيس.. هتف قيس من الداخل:

– اللهم لا تفضحنا.. واستر علينا.

وتدخل ليلى كأنها فلقة قمر.. كانت تريد أن تقول لأبيها: أمرك يا أبى.

لكنها لم تستطع.

بلعت ليلى كل العبارة إلا الحرفين الأولين.. وشهقت فى دهشة.. خفق لها قلبها.. وانقطعت أنفاسها!

سألت نفسها: أقيس هذا .. وما الذى أتى به؟

تراوحت ليلى بين الفرحة والدهشة.. غرقت فى حيرة من أمرها.. وقطع أبوها عليها كل هذا القلق حينما قال:

– هذا ابن عمك يا ليلى جاء يطلب سمنًا.. املئى له وعاءه..

وتسرع ليلى إلى الداخل لتأتى إلى قيس بقدح السمن الكبير تفرغ منه فى وعاء قيس.

وبدأت ليلى تصب السمن من قدحها فى وعاء قيس.. وقيس مثبت عينيه فى عينيها.. وهى تصب ولا تدرى أمتلأ الوعاء أم لا؟!

وظلت ليلى تصب وتصب السمن.. وبدأ حديث هامس بين العاشقين حتى امتلأ الوعاء وفاض.. وسال على أقدامهما حتى استنقعت السمن وهما لا يدريان من أمرهما شيئًا.



ويفيق العاشقان وقد ملأ السمن أرض البيت.

فتقول ليلى: أرأيت ماذا فعلنا يا قيس؟!

فيرد قيس وهو لا يزال فى سبحاته:

لو أنصف الدهر مــا فارقتكم أبدًا   ولا تنقلتُ من ناس إلى ناس

يا لهذا العشق المجنون!!

لقد أسرع قيس إلى أبيه بالسمن.. وبقلب ملؤه الجنون والعشق معًا.. وكان قيس ينتظر من أبيه أو أمه أن يطلب أيهما منه شيئًا .. فيسرع به إلى بيت ليلى.. ليحضره بعد أن يراها.

وكلما مرت أيام لا يريدون من بيت ليلى شيئًا.. يحتال على لقائها بأسباب وعلات.. تنم عن عشقه وجنونه.

وذات مساء شتوى أرسلته أمه إلى بيت أم ليلى ليحضر نارًا.. وتلفّح قيس بِبُرْد ثقيل. وأسرع إلى بيت ليلى.

وتستقبله ليلى.. بالنار.

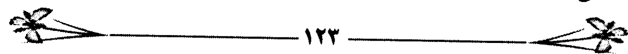
وكعادتهما وقفا يتهامسان حتى احترق الوعاء الذى فيه النار.. ووصلت النار إلى البُرْد الذى يلبسه قيس. وهو لا يدرى من أمره شيئًا .. ولا يحس بهذا اللهب القاسى.

ويخلع قيس بُرْده.. لعله يحتوى النار.. فاحترق البُرْد وما استكملا حديثهما الجميل.. وأخذ يحدث النار:

يا موقد النار يذكيها ويخمدها   قـرُّ الشتـاء بـأريـاح وأمطـار

قم فاصطل النار من قلبى مضرمة   فالشوق يُضرمها يا موقد النار

وينطلق وجدان قيس بالشعر.. ويتدفق أنهارًا وجداول.. ويشبب بليلى وتطير أشعاره هنا وهناك.. إلى أن تصل إلى أسماع أبى ليلى..

إنها فى عينيه أجمل النساء .. وأظرفهن.. وأحسنهن جسمًا وعقلا.. وأملحهن شكلا.. أو كما يقول:

أخذت محاســـــن كل ما	**ضـنّـت محـاسـنـه بـحـسـنـه**
كـاد الـغـــزال يكونهـــــا	**لــولا الشــوى ونشــوز قـرنـه**

وأما حبه لها.. فيفوق كل تصور .. وكل حدٍّ.

فحبك أنسانى الشراب وبرده	**وحـبك أبـكـانـى بـكـل مـكـان**
وحبك أنسانى الصلاة فلم أقم	**لـربـى بـتسـبـيـح ولا بـقُـرانِ**

ويقول أيضًا:

أحبك يا ليلى محبة عاشق	**عليه جميعُ المصعبات تهونُ**
أحبك حبًّا لو تحبين مثلـه	**أصـابك مـن وجدٍ علـىَّ جنـونُ**
ألا فارحمى صبا كئيبا معذبا	**حريق الحشا مضنى الفؤاد حزين**
قتيل من الأشواق أما نهـاره	**فـبـاك وأمـا لـيـلـه فـأنـيـن**

وفتى بلغت حاله كذلك.. واختلط لديه الإيمان بالوثنية.. والنهار بالليل، والعقل بالجنون.. والصعب باليسير.. والنعيم بالعذاب.. لفتى غريب عن الناس لكنه ليس غريبًا عن معشوقته!

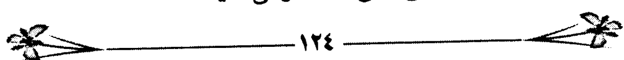
لقد نسى قيس فى حب ليلى كل شىء.. حتى نفسه..

نسى أنه يعيش .. إلا من أجلها..

وأنه يموت .. إلا من أجلها..

وأنه يشرب.. وأنه يصلى .. وأنه يقرأ القرآن.

أما ليلى .. وآه من ليلى.. عند قيس .. ومن قيس عند ليلى.. إن ليلى عند قيس كل شىء فى نفسه وفى حياته.



فماذا تكون ليلى؟

أهى تلك الفتاة التى تتعلل ويسوقها الدلال والصد والهجر.. لكى تمتلك؟

أم هى الحبيبة التى تخلت عن عنادها مقدرة إخلاص هذا العاشق؟

وتبعد المسافة بين العاشقين.. ويشتعل القلب.. حتى يلتقى اللهيب باللهيب.. والحلم بالحلم.. والجنون بالجنون.

(٢)

تكاد شخصية قيس تدخل فى مجال الأسطورة ابتداء من الآن.. لقد صار عشقه لليلى حديث الناس.. وصار شعره على كل لسان.. والعرب تعد ذلك مدعاة للمنع والتفريق والحرمان بين العاشق والمعشوق.

علم أهل ليلى بما يقوله قيس فى ليلى.. وأدركوا مبلغ هيامه وأشواقه وغرامه.. فحالوا بينه وبينها.. وانطلق هائمًا على وجهه مشتعلا بالشوق. . والأمل معًا.

لقد كان قيس جميل الوجه.. راويةً للشعر .. حلو المنطق .. مديد القامة.. جعد الشعر – كما وصفه معاصروه –.

وحينما بدأت مأساته.. صار مصفرًّا هزيلاً.. ضعيف البنية.. مجهد العينين.. تدعو حاله إلى الإشفاق .. ولسان حاله يقول:

متى يشتفى منك الفؤاد المعذبُ ... وسهمُ المنايا من وصالك أقربُ

فبعدٌ ووجدٌ واشتياقٌ ورجفةٌ ... فلا أنت تدنينى ولا أنت أقربُ

كعصفورة فى كف طفل يزمُّها ... تذوق حياض الموت والطفلُ يلعبُ

فلا الطفل ذو عقل يرق لما بها ... ولا الطير ذو ريش يطير فيذهبُ

ولو كان لى قلبان عشت بواحد   وأفردت قلبًا فى هواك يعذبُ

ولى ألف وجه قد عرفتُ طريقه   ولكن بلا قلب.. إلى أين يذهب

لقد أحرق الشوق قلبه.. وفتت كبده.. وعظم داؤه.. فلا شفاء ولا عودة .. اختلط عقله.. فترك الطعام والشراب.. وطالت لحيته وتوحش.. فلم يجد مأوى لجنونه هذا خيرًا من جبل التوباد.. مرتع الذكرى.. والحب.. والهمس الجميل..

إنه يعرف أن جبل التوباد قريب.. كان يسرع إليه مع مشرق الشمس وهو صبى صغير، وهو يتذكر أيضًا أن الشمس كانت عن يمينه .. إذن ينطلق إلى هذا الاتجاه.

وجعل قيس الشمس عن يمينه.. وانطلق هائمًا على وجهه يطلب جبل الذكرى.. جبل التوباد.. وظل يسير ويسير.. فى لفح الصحراء.. حتى علت الشمس فوق رأسه ولم يصل إلى التوباد.

إنه لا يود أن يسأل أحدًا عنه.. فسيدله قلبه عليه لا محالة.. وتصبح الشمس عن شماله.. ولا يجد جبل التوباد.

لابد أنه ضل الطريق.. كما ضل عقله تمامًا.

توقف من التعب. لجأ إلى ظل ربوة.. أخذ يبكى ويبكى .. حتى سمع أصوات قافلة قادمة نحوه.

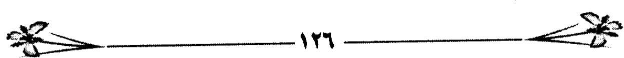
هب إليها يطلبها.. أسرع إلى رجل منها.. سأله:

– بأبى أنت .. أين التوباد من أرض عامر؟

دهش الرجل لسؤال المجنون.. ثم ضحك ضحكة عالية وأجاب:

– أين أنت من أرض عامر أيها الرجل؟!.. إنك على مشارف الشام..

– الشام!



- نعم يا رجل.
- وكيف لى بالتوباد يا أخى؟
- عليك أن تؤم النجم الذى يظهر هنا (وأشار إلى موضع فى السماء) لا تتركه أبدًا..
- شكرًا لك يا أخى.

كان على قيس أن ينتظر حتى تغيب الشمس ويظهر هذا النجم.. فيواصل بحثه ويعود أدراجه مرة أخرى.

ويمضى قيس لا يثنيه ظلام الليل.. ولا تخيفه الوحوش الضارية.. ويجعل النجم فى عينه.. ويظل يسير.. ويسير .. ليلة .. وليلة.. وليلة .. حتى أضناه السير.

ويلجأ إلى واحة خضراء .. يأكل من أشجارها.. ويشرب من مياهها .. ويتأمل قدرة الله فى الطبيعة.. ويندهش حين يرى قومها.. وينكرهم..

ويسأل أين هو من التوباد.. وأرض بنى عامر.

فيقولون: إنك بأرض اليمن.. أين أنت من أرض بنى عامر؟ عليك بنجم كذا وكذا.

ويظل قيس هائمًا.. غائبًا.. حائرًا .. يتراوح بين الشام واليمن..

وبين الشرق والغرب.. لا يعرف ليله من نهاره.. ولا شمسه من قمره.. واختلطت فى عينيه النجوم.. فغابت عنه.. ورحلت إلى آفاق أخرى.

وبعد رحلة طويلة مضنية.. يهتدى إلى جبل التوباد.

أأنت أيها التوباد.. أأنت يا طفولة الحب والشوق.



يخاطب قيس التوباد.. وينكب على وجهه فوق رماله شوقًا وحنينًا وبكاءً .. وكأنه يستمع إلى التوباد.. يفرح للقائه.. ويجفف دمع عينيه.. ويحتضنه بعد طول غياب فيحكى عن ذلك قائلاً:

وأجهشت للتوباد حين رأيته وهلّل للرحمن حين رآنى
وأذريت دمع العين لما رأيته ونادى بأعلى صوته.. ودعانى
فقلت له أين الذين عهدتهم حواليك فى خصب وطيب زمان
فقال: مضوا واستودعونى بلادهم ومن ذا الذى يبقى مع الحدثان
وإنى لأبكى اليوم من حذرى غدًا فراقك.. والحيَّان مؤتلفانِ
سجالاً وتهتاناً ووبْلاً وديمة وسَحًّا وتسجامًا إلى هملان

ويظل قيس يعيش فى ظل التوباد زمنًا يتنسم ذكريات الماضى.. إلى أن قلق عليه أهله.. فأرسلوا من يبحث عنه هنا وهناك.. حتى أعادوه إلى الحى فى غير وعيه.

وأسرعت أمه إلى ليلى تخبرها بما آل إليه حال قيس.. لقد ترك الطعام والشراب وذهب حب ليلى بعقله.

أخبرتها أمه بحال قيس وقالت لها:

– لو جئته يا ليلى وقتًا.. لعله يثوب إلى عقله.

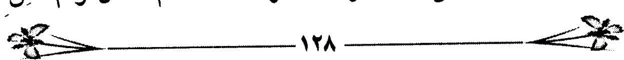
قالت ليلى لأم قيس:

– أمَّا نهارًا فلا.. لأننى لا آمن قومى على نفسى.. وسآتيه ليلا.. وعادت الأم إلى ابنها تخبره بمقدم ليلى فى الليل.

ليلى قادمة إذن.. حبة القلب والعين. نعمة الله لقيس.

دخلت عليه ليلى.. وشهقت لحاله:

أخبرتُ أنك من أجلى جننتَ وقدْ فارقت أهلكَ لم تعقلْ ولم تفِقِ



وأفاق قيس على وجود ليلى.. فكف عن هذيانه منشدًا:

قالت جننتَ على رأسى فقلت لها الحب أعــظـمُ مما بــالمجانينِ

الحب ليس يفيقُ الدهر صاحبهُ وإنما يصرع المجنونَ فى الحين

لو تعلمين إذا ما غبتِ من سَقمى وكيف تسهر عينى لم تلومينى

فبكت ليلى.. لحال حبيبها.. وتحدثا حتى كاد الصبح يسفر.. ثم ودعته ليلى وانصرفت.. وهو لا يدرى أن هذه الليلة كانت آخر عهده بها.

وجاءت يومًا نسوة إلى أم قيس.. يسألنها عن قيس.. ويطلبن إليها أن يجلسن إليه.. فأدخلتهن عليه.. وهو ينظر إلى الفراغ بلا طائل.. وتحلَّقن من حوله.. فأفاق قيس عليهن.. وسأل:

– ما بالكن؟

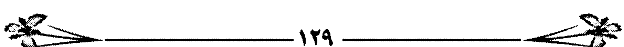
قُلن: نشفق عليك يا قيس.. ولا ندرى ما الذى دعاك إلى ما أنت فيه من ليلى.. وما ليلى إلا واحدة من نساء القوم.. فهل لك فى أن تصرف هواك عنها إلى إحدانا.. فنجزيك بهواك.. ونعيد إليك ما ضاع من عقلك.. ويصح جسمك؟

قال قيس: لو قدرت على هذا لفعلت.. لو قدرت على صرف الهوى عنها إليكن لصرفته عنها.. وعن كل أحد بعدها.. وعشت فى الناس مستريحًا..

قلن له: غريب أمرك يا قيس.. بالله ما أعجبك فيها حتى تملك عليك عقلك وقلبك وحياتك..

قال قيس: آه!

كل شيء رأيته وشاهدته وسمعته منها أعجبنى..



والله ما رأيت شيئًا منها قط إلا كان فى عينى حسنًا.. ولقد جهدت أن يقبح منها عندى شىء.. أو يعاب شىء.. لأسلو عنها.. فلم أجده..

وكيف أعزى النفس بعد فراقها وقد ضاق بالكتمان من حبها صدرى

وأجهش قيس فى البكاء.. فتركته النساء ومضين عنه.. وهن يقلن:

– إنه لمجنون حقًا!

وسمعنه وهو يودعهن:

وإنى لمجنون بليلى موكلٌ ولست عزوفًا عن هواها ولا جلدا

إذا ذكرت ليلى بكيتُ صبابة لتذكارها حتى يبلَّ البكا.. الخدا

فيارب إن لم تقسم الحب بيننا سواءَيْن فاجعلنى على حبها جلدا

ولم يجد قيس خيرًا فى القعود داخل بيت أبيه.. وعزم على الخروج مرة أخرى إلى الجبل.. وإلى الاقتراب من بيت ليلى.

ودخل عليه أبوه وهو على أهبة الرحيل.. فقال له:

– إلى أين يا ولدى؟

– إلى حال سبيلى يا أبى.. ليس لى مقام هنا.

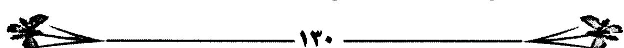
– يا ولدى دَعْ عنك ما تحمله من حب ليلى.. اسلُها بغيرها.

– والله يا أبت ما أجد إلى السلوِّ سبيلاً.. وإنى لفى أعظم الكرب والبلاء.

ثم أنشأ يقول:

لئن كان لى قلب يذوب بذكرها وقلبٌ بأخرى.. إنها لقلوبُ

فيا ليل جودى بالوصال فإننى بحبيكِ رَهنٌ والفؤادُ كئيبُ



لك الله إنى واصل ما وصلتنى   ومثن بما أوليتنى ومثيب
وآخذ ما أَعْطَيْتِ عفوًا وإننى   لأزورُ عما تكرهين هيوبُ
فلا تتركى نفسى شعاعًا فإنها   من الوجد قد كادت عليك تذوبُ

فخرج أبوه من عنده يائسًا من إصلاح حاله..

وانطلق قيس مرة أخرى إلى الصحراء.. يحوم حول بيت ليلى تارة.. ويلجأ إلى دفء التوباد تارة أخرى..

ويذهب إليه أصدقاؤه حيث يكون.. لعلهم يخففون عنه معاناته.. بلا جدوى..

وكان لقيس ابنا عم يأتيانه.. فيحدثانه.. ويؤنسانه.. ويسرِّيان عنه فى وحدته.. فوقف عليهما يومًا وهما جالسان.. فقالا له:

– يا قيس.. ألا تجلس كما نجلس؟

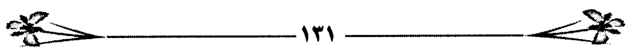
قال قيس: لا.. بل أمضى إلى منزل ليلى.. فأترسمه.. وأرى آثارها فيه.. فأشفى بعض ما فى صدرى.

فقالا له: ونحن معك لا نتركك.

فقام الثلاثة وانطلقوا حتى اقتربوا من دار ليلى..

ووقف قيس بها طويلاً.. يدور حولها.. ويتتبع آثارها.. ويبكى.. ويقف فى أقرب موضع منها.. وكان مما أنشأه قوله:

فواكبدا من حب من لا يحبنى   ومن زفرات ما لهن فناءُ
أريتك إن لم أعطك الحب عن يد   ولم يك عندى إذ أبيت إباءُ
أتاركتى للموت.. إنى لميت   وما للنفوس الهالكات بقاءُ
إذا القوم قالوا وردهن ضحى غد   تواهقْن حتى وردهن عشاءُ



وحاول ابنا عمه أن يرداه إلى صوابه.. ويجعلاه يسلو ليلى قليلا.. ويعود إلى عقله.. فكان ينظر إلى بيت ليلى من بعيد ويقول:

وقالوا لو تشاء سلوت ليلى فقلت لهم.. فإنى لا أشاءُ
وكيف وحبها علقٌ بقلبى كما علقت بأرشية دلاءُ
لها حب تنشَّأ فى فؤادى فليس له - وإن زجر - انتهاءُ

ويعود قيس مرة أخرى إلى حيث كان!

وذات يوم.. مر قيس.. فى توحشه بحى ليلى.. فلقى ليلى فجأة.. فعرفها وعرفته.. فصعق.. وخر مغشيًا عليه.

وتجمع فتيان الحى.. فأخذوه.. ومسحوا التراب عن وجهه. وأسندوه إلى صدورهم.. وسألوا ليلى أن تشفق عليه وتقترب منه.. فرقت له لما رأته من حاله.. وقالت:

- لا يجوز أن أفتضح به.

واستدعت أمه لها وقالت:

- اذهبى إلى قيس وقولى له: ليلى تقرأ عليك السلام.. وتقول لك: أعززْ على بما أنت فيه.. ولو وجدت سبيلاً إلى شفاء دائك لوقيتك بنفسى منه!

فمضت الخادمة إلى حيث كان قيس وأخبرته بقولها.. فأفاق وجلس.. وقال: أبلغيها السلام.. وقولى لها: هيهات هيهات.. إن دائى ودوائى أنت.. وإن حياتى ووفائى لفى يديك.. ولقد وكلت بى شقاءً لازمًا وبلاء طويلاً.

فوالله ثم الله إنى لدائب أفكر ما ذنبى إليك فأعجبُ
ووالله ما أدرى علام هجرتنى وأىَّ أمورى فيك يا ليل أركبُ



أأقطع حبل الوصل فالموت دونه   أم اشرب رنقا منكمو ليس يُشربُ
أم اهربُ حتى لا أرى لى مجاورا   أم افعل ماذا.. أم أبوحُ فأُغلبُ
أحن إلى ليلى وإن شطت النوى   بليلى كما حنَّ اليراعُ المثقبُ
يقولون ليلى عذبتك بحبها   ألا حبذا ذاك الحبيب المعذبُ

وتعود الخادمة إلى سيدتها وتحكى لها ما كان من قيس.. فتجهش ليلى بالبكاء والشوق.. وتمضى الأيام.. وتحط أثقالها أكثر على عقل قيس.. ويحار أبوه وعشيرته فى أمره.. ويحتال أبوه عليه.

أرسل إليه رجلاً يخبره أنه لقى ليلى وجلس إليها.. ووصف الرجل إلى قيس صفات من ليلى ومن كلامها مما يعرفه قيس جيدًا.. حتى تنبه قيس لحديث الرجل.. فوجدها الرجل مدخلاً جيدًا لما دبره مع أبيه.

قال له الرجل: أتدرى يا قيس ما تقول عنك ليلى..؟ إنها تشتمك وتسبك.. وأنت تخلص لها وتعشقها.. وهى تقول للناس عنك إنك كاذب فاضح لها.. وأنها تنكر أنها تعرفك أو اجتمعت معك!

ولم تنجح حيلة الرجل وأبى قيس.. بل ازداد نشاط قيس.. فثاب إلى عقله بمجرد ذكر أخبارها – الملفقة – وأنشأ يقول:

تمر الصَّبا صفحا بساكن ذى الغضى   ويصدع قلبى أن يهب هبوبُها
إذا هبت الريح الشمال.. فإنما   جوای كما تهدى إلىَّ جنوبُها
قريبة عهد بالحبيب.. وإنما   هوى كل نفس حيث كان حبيبها
حلال لليلى شتمنا وانتقاصنا   هنيئًا.. ومغفور لليلى ذنوبُها

ويمضى الرجل من عند قيس خائب السعى.



وكان قيس يألف الحر والبرد.. والشمس الحارقة والسيل.. لا يشعر بتغير الطقس.

وأراد يومًا أن يلقى بنفسه من أعلى الجبل.. فقد يئس من حياته من محبوبته التى لا يراها.. ولا ترد على لوعته.

وكاد يفعل ذلك لولا أن لحق به جماعة من أصحابه.. ولما سألوه لماذا تفعل ذلك بنفسك أجابهم أنه يريد أن يلقى بنفسه مع ريح «نجد» حيث تذهب به إلى ليلى.

وفى اليوم التالى أقبل عليه نفر من هذه الجماعة.. واختاروا منهم واحدًا.. وقدموه إليه قائلين:

– إنه رجل قادم من ناحية نجد.

فتنفس قيس الصعداء حتى ظنوا أن كبده تصدعت.. ثم جلس يسأل الرجل عن نجد وأحيائها.. وأوجعه الوصف.. ففاضت نفسه شعرًا:

ألا حبذا نجد وطيب ترابها   وأرواحها إن كان نجد على العهد

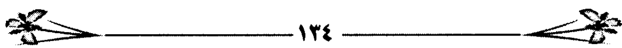
وتبلغ الجماعة أباه عما كان ينوى عليه قيس.. فيسرع إليه مع جمع من أعمامه وأخواله.. فلاموه.. وعذلوه وقالوا له:

– لا خير لك فى ليلى.. ولا خير لها فيك.. وقد رددنا عنها.. ولك فى بنات عمك من هى خير لك منها.. فلو تزوجت واحدة منهن نرجو أن يزول عنك بعض ما فى قلبك من حبها.

وأطرق قيس برهة.. ثم بكى.. وقال قصيدة طويلة منها:

يلومون قيسا بعدما شفه الهوى   وبات يراعى النجم حيران باكيا

فيا عجبا ممن يلوم على الهوى   فتى دنفًا أمسى من الصبر عاريا



فلما سمعوا أبياته أسمعوه ما يكره.. وانصرفوا عنه يائسين.

وهكذا غرق قيس فى جنونه بليلى.. وأغلق على نفسه عالمها وحده.. وكف نفسه وإحساسه عن كل شىء حوله سواها.

بل وجدناه يهيم فى الصحراء على وجهه.. يعيش مع الوحوش والطيور وقسوة الطبيعة لعله يجد فيها ما لم يجده فى البشر من سلوى.

ويبلغ به الجنون حدًّا شديدًا.. وكان كلما رأى شيئًا ينتمى إلى نجد هاجت الذكرى داخله واشتعل شوقًا وحنينًا.. وقضى يومه ذاهلا عن نفسه.

لك الله يا قيس.. وعلى عقلك السلام.. وعلى قلبك الصدق والعشق.

(٤)

ويضيق أهل ليلى بالمجنون.. ويضيقون بأهله رائحين غادين يطالبونهم بزواج قيس وليلى.. وأبو ليلى يأبى.. ويشكو قيسًا إلى السلطان فيهدر دمه لهم.. ولكنه لم يبال بالخطر.. فكان يغشى حى ليلى ويقول:

- الموت أَرْوَحُ لى.

ويرتحل أهل ليلى من حيهم.. ويبعدون.. ويعرف قيس إلى أين هم ذاهبون.. فيسرع إليهم.. ويلصق صدره بمنزل ليلى ويمرغ خده فى ترابه.

وكان قيس بعد رفض والد ليلى تزويجه.. يهيم فى الحى وحده.. ويغيب أيامًا ويتفرس الناس.. ويهمل ثيابه.. فكان يلفت



بذلك أنظار من يراه.. بل أصبح حديث الناس فى القبائل.. وموضع عطف كثيرين.. فهو ابن سيد الحى.. وكان من قبل قد عرف بالذكاء.. ورواية الشعر والأخبار.. فكف عن ذلك كله إلا ذكر ليلى.

وقد رآه مرة عمر بن عبد الرحمن بن عوف.. عامل مروان بن الحكم على الصدقات.. فاقترب منه.. وكلمه.. وطلب منه أن ينشده شعرًا فأنشده.. وأعجب به فسأله قيس أن يخرج معه.. فأجابه إلى ذلك.. ولكن قوم ليلى أخبروه بخبره.. وأن السلطان أهدر دمه.. فرجع عما وعد به.. وأمر له بإبل.. فردها قيس وانصرف مغضبًا.

وكان قيس يريد من مصاحبة ابن عوف أن يأتى حى ليلى.. وربما حمل ذلك والد ليلى على الرجوع عن رفضه.

ورثى لحاله (نوفل بن مساحق) عامل ابن عوف.. بعد أن رآه فى حالة تولُّه وهيام وجنون.. فكلمه ابن مساحق فى أمر ليلى فأفاق قيس وأخذ يشكو له ما فعلوا به..

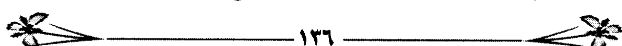
فقال نوفل: أتحب أن أزوجكما؟

قال قيس: وهل إلى هذا من سبيل؟

فوعده نوفل ببذل الجهد.. ودعا له بثياب جديدة.. وصار قيس على هذا الحال كأصح أصحابه.. يحدثه وينشده.

ولما بلغ ابن مساحق قوم ليلى.. تلقوه بالسلاح وقالوا له:

– إن السلطان قد أهدر لنا دم المجنون.. ووالله لا يدخل منازلنا أبدًا. فأقبل ابن مساحق بهم وأدبر.. فأبوا عليه .. فآثر رد قيس على سفك الدماء فى الحرب.. ورجع قيس دون مراده.



ويبلغ البلاء أشده حينما خطبت ليلى إلى واحد من أهلها – من بنى ثقيف – يدعى «وردًا» فأعجب بجمالها.. وطلب يدها.. وفى ذلك يقول قيس:

ألا إن ليلى العامرية أصبحت   تقطع إلا من ثقيف حبالها
همو حبسوها محبس البُدنِ وابتغى   بها المال أقوام.. ألا قل مالها

وخشى أهل قيس عليه.. فحبسوه وقيدوه!

وهنا طلق قيس الدنيا.. وهام مرة أخرى فى البرية.. وخلوا سبيله مع الوحوش.. يذهب أهله إليه كل يوم بطعامه.. فلا يأكل.

ويجتمع أهل الحى إلى والد المجنون.. وينصحونه بأن يحج بولده.. لعله يجد برءًا لما به.. ففعل.

وجاءه أبوه.. وأخذه إلى الكعبة وقال له:

– تعلق يا ولدى بأستار الكعبة واسأل الله أن يعافيك من حب ليلى.

ويرد قيس: اللهم زدنى لليلى حبًّا.. وبها كلفًا.. ولا تنسنى ذكرها أبدًا.

وحينما رأى قيس الناس محرمين بمكة يدعون ربهم.. أنشد:

دعا المحرمون الله يستغفرونه   بمكة وهنا أن تمحى ذنوبها
ناديت يا رباه أول سؤلتى   لنفسى ليلى ثم أنت حسيبها
فكم قائل قد قال تب فعصيته   وتلك لعمرى توبة لا أتوبها

ويعود الحجيج..

ويمرون ومعهم المجنون بزوج ليلى.. وهو جالس يصطلى فى يوم شاق.



فوقف المجنون عليه وسأله:

بربك هل ضممت إليك ليلى قبيل الصبح أو قبلت فاها
وهل رفت عليك قرون ليلى رفيف الأقحوانة فى نداها

فقال زوج ليلى:

– اللهم قد حلفتنى.. فنعم.

فقبض المجنون بكلتا يديه قبضتين من الجمر.. فما فارقهما حتى سقط مغشيًا عليه.. فقام زوج ليلى مغمومًا بفعله متعجبًا من حاله.

ومرة.. خرج زوج ليلى وأبوها إلى مكة.. فأرسلت ليلى بأمةٍ لها إلى قيس.. ودعته لزيارتها.

ولم يصدق قيس هذه الدعوة.

قالت له الأمَة: سر إلى سيدتى فى كل ليلة.. ما دام القوم على سفر.. فكان يختلف إليها.. حتى قدموا.

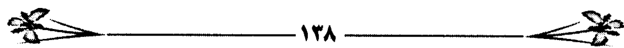
وبلغ قيسًا أن زوج ليلى ذكره وسبه قائلاً:

– أو بلغ من قدر قيس بن الملوح أن يدعى محبة ليلى.. وينوه باسمها.

فقال قيس ردًا عليه ليغيظه:

فإن كان فيكم بعل ليلى فإننى وذى العرش قد قبلت فاها ثمانيا
وأشهد عند الله أنى رأيتها وعشرون منها أصبعا من ورائيا
أليس من البلوى التى لا شوى لها بأن زوِّجت كلبا.. وما بذلت ليا

لقد اشتد الهول على قيس منذ زوجت ليلى إلى ورد.. إن ذلك كان يعنى عنده الموت وقد اشتد مرضه.. ولم تسأل عنه ليلى.. فقال:

فـوالله مـا أدرى بـأيـة حـيـلـة   وأى مـرام أو خـطـارٍ أخـاطـر

ووالله ما فى القرب لى منك راحة   ولا البعد يسلينى ولا أنا صابر

عزم زوج ليلى على الرحيل بليلى إلى بلده.. وبلغ قيسًا أنه غادٍ بها فاشتعل قلبه كراهية لهذا الرجل.. فقال:

أمزمعة للبين ليلى ولم تمت   كـأنك عـمـا قـد أظلَّـكِ غـافـل

ستعلم إن شطت بهم غربة النوى   وزالـوا بـلـيـلـى أن لـبك زائـل

وأنك ممنـوع الـتصبر والـعـزا   إذا بعدت ممن تحب المنازل

ويرسل إليها رسولاً بهذه الوصية:

– قف بحيث تسمعك ليلى ثم قل:

الله يـعـلـم أن الـنـفس هـالـكة   بـالـيـأس منك ولـكنـى أعنّيها

فمضى الرجل إلى حى ليلى.. حتى بلغ دارها.. ولم يزل يرقب خلوة حتى وجدها.. فوقف عليها ثم قال لها: يا ليلى.. لقد أحسن الذى يقول:

الله يعلم.

وأنشدها قول قيس.. فبكت طويلاً ثم قالت:

– أبلغه السلام وقل له:

نفسى فداؤك لو نفسى ملكت إذا   ما كان غيرك يجزيها ويُرضيها

صبرًا على ما قضاه الله فيك على   مرارة فى اصطبارى عنك أخفيها

ولقيه ابن عم له.. فقال:

– يا أخى.. اتق الله فى نفسك.. فإن هذا من عمل الشيطان فازجره عنك.. فأنشأ قيس يقول:

يا حبذا عمل الشيطان من عمل   إن كان من عمل الشيطان حبّيها

منيتها النفس حتى قد أضرَّ بها   وأحـدثت خـلـقـا مما أُمـنـيـهـا

ماذا تبقى بعدُ.. رحل الحبيب.. وانفطر القلب.. وتوحش العالم من حوله.. (وقُدَّت) قلوب الناس جميعًا من صخر.. فهى لا تعرف الحب.

ماذا تبقى بعدُ؟

رحل زوج ليلى.. بليلى.

وانقطعت أخبارها عن الحى.

وخاب أمل العاشق المجنون.

إنه يذكر أنه أباه وأهله قد وقفوا مستترين ينظرون إلى موكب ليلى وقد رحلت مع زوجها وقومها.. فلما رآهم قيس.. بكى وجزع.. فقال له أبوه:

– ويحك يا بنى.. إنما جئنا بك متخفيا ليتروح بعض ما بك بالنظر إليهم.. فإذا فعلت ما أرى عُرفت.. وقد أهدر السلطان دمك إن مررت بهم.. فأمسك أو فانصرف.. فقال:

– ما لى سبيل إلى النظر إليهم وهم يرتحلون.. وأنا ساكن غير جازع.. ولا باكٍ.. فانصرف بنا يا أبت.

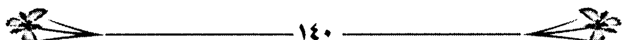
....

ويحكى أن شيخًا من بنى مرة خرج إلى أرض بنى عامر ليلقى المجنون.. فدلوه عليه.. وعرف أن أباه شيخ كبير.. وله إخوة رجال.. ولهم خير كثير.. وحكوا له حكايته قال لهم: دلونى عليه.

فدلوه على فتى من الحى كان صديقًا له.. وقالوا:

– إنه لا يأنس إلا به.. ولا يأخذ أشعاره عنه غيره.

فأتاه الشيخ وسأله أن يدله عليه.. فقال:



– إن كنت تريد شعره فكل شعر قاله إلى الأمس عندى.. وأنا ذاهب إليه غدًا فإن قال شيئًا آخر أتيتك به.

فقال الشيخ: بل أريد أن أراه.

فقال الفتى: إنه إن نفر منك نفر منى فيذهب شعره.. اطلبه فى هذه الصحارى وحدك فإذا رأيته.. فاقترب منه مستأنسًا ولا تشعره أنك تهابه.. حتى لا يتوعدك ولا يتهددك.. واجلس صارفًا بصرك عنه.. وانظر إليه أحيانًا.. فإذا رأيته سكن من نفوره فأنشده شعرًا غزلاً.. وإن كنت تروى من شعر قيس بن ذريح شيئًا فأنشده إياه فإنه معجب به.

فخرج الشيخ وحده يطلب قيسًا فى الصحراء.. وقضى طوال يومه حتى وجده جالسًا على رملٍ قد خط فيه بأصبعه خطوطًا فدنا منه غير منقبض.. فنفر منه نفور الوحش من الإنس.. وإلى جانبه أحجار.. فتناول حجرًا فأعرض الشيخ عنه.. فمكث ساعة كأنه نافر يريد القيام.

فلما طال جلوس الشيخ سكن قيس وأقبل يخط بأصبعه.. فأقبل الشيخ عليه وقال: أحسن والله قيس بن ذريح حين قال:

ألا يا غراب البين ويحك نبنى بعلمك فى لبنى وأنت خبير

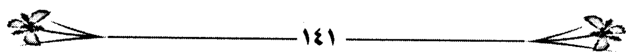
فإن أنت لم تخبر بشىء علمته فلا طرت إلا والجناح كسير

فأقبل قيس على الشيخ وهو يبكى وقال:

– أحسن والله.. وأنا أحسن منه قولاً حين أقول:

كأن القلب ليلة قيل يُغدى بليلى العامرية أو يُراحُ

قطاةٌ عزَّها شَرَك فباتت تَجاذبهُ وقد عَلِق الجناح



فأمسك الشيخ عنه برهة.. ثم قال له: وأحسن ابن ذريح حين قال:

وإنى لمفْن دمع عينىَّ بالبكا حذارًا لما قد كان أو هو كائنُ

فبكى قيس حتى ظن الشيخ أن نفسه قد فاضت.. وقد رأى دموعه قد بلت الرمل الذى بين يديه.

ثم سنحت له ظبية فوثب يعدو خلفها حتى غاب عن الشيخ.. فانصرف عنه.. وعاد فى اليوم التالى يطلبه فلم يجده.

وجاءت امرأة كانت تصنع له طعامًا.. فوضعته إلى طعام الأمس.. وفى اليوم الثالث جاء الشيخ ومعه أهل قيس فطلبوه.. فلم يجدوه.. وانطلقوا إليه فى اليوم الرابع.. وبحثوا عنه حتى وجدوه فى وادٍ كثير الحجارة خشن وهو ميت بين تلك الحجارة.. فحمله أهله.. فغسلوه وكفنوه.. ودفنوه.. واجتمع فتيان الحى.. وفتياته.

ولم تبق فتاة من بنى جعدة.. ولا بنى الحريش إلا خرجت حاسرة صارخة عليه تندبه..

كما بكى فتيان الحى عليه أحر البكاء.

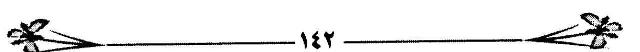
وأقبل حى ليلى معزين.. وأبوها معهم.. فكان أشد القوم جزعًا وبكاء على قيس وجعل يقول:

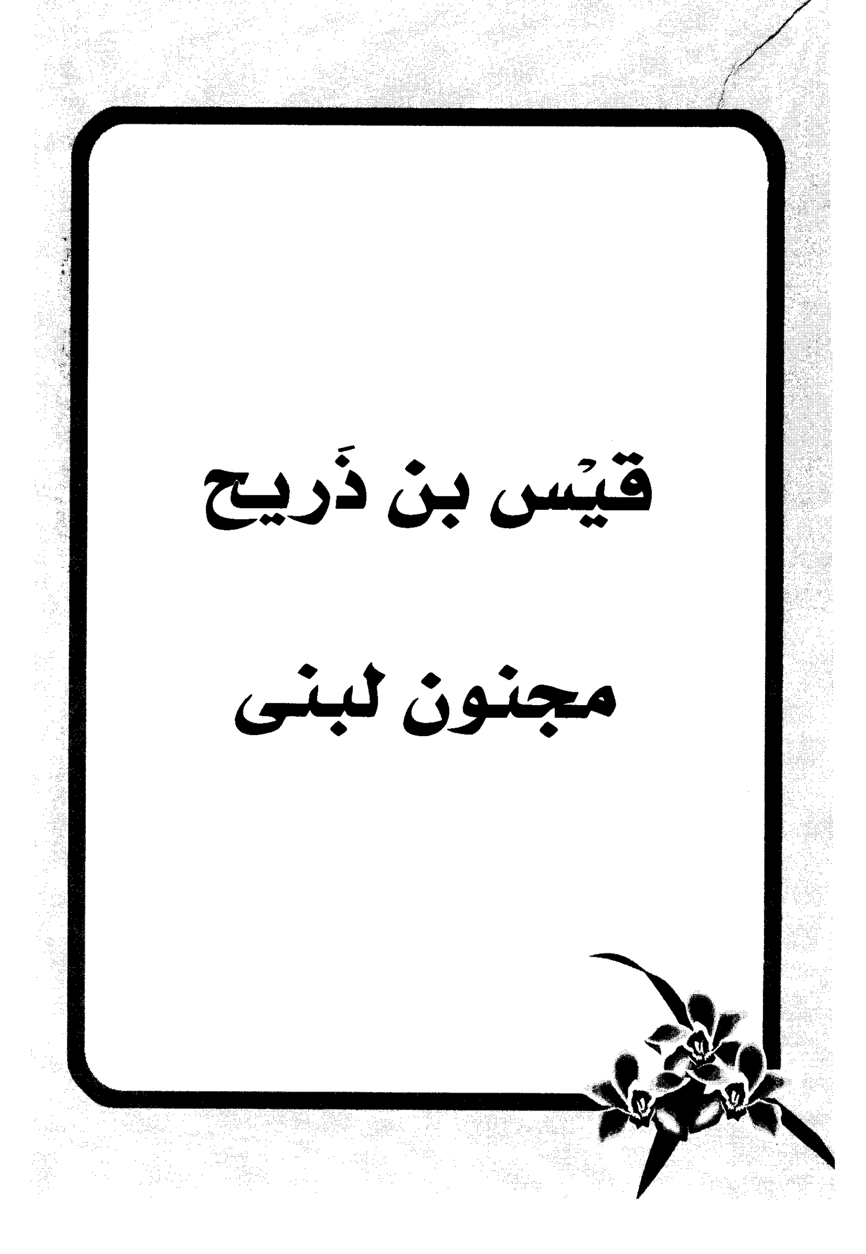
– ما علمنا أن الأمر يبلغ به كل هذا.. ولكنى كنت امرأً عربيًا أخاف العار وقبح الأحدوثة ما يخافه مثلى.. فزوجتها.. وخرجت من يدى.. ولو علمت أن أمره يجرى على هذا ما أخرجتها عن يده.. ولا احتملت ما كان فى ذلك.

وكان يومًا لم يشهد العرب مثله بكاء على ميت.

وكانت النهاية.

نهاية عاشق.. ونهاية قصة عشق مجنونة.. سجلها التاريخ نموذجًا للصدق والوفاء النادر.





قيْس بن ذَريح

مجنون لبنى



فـواكـبـدى عـلـى تسـريـح لـبـنـى
فـكـان فِـراق لـبـنـى كـالخداعِ

تـكـنّـفـنـى الـوشـاةُ فـأزعـجـونـى
فـيـالـلـنـاس لـلـواشـى المطـاعِ

فـأصـبـحتُ الـغـداةَ ألـومُ نـفسـى
عـلـى أمـر ولـيـس بمسـتـطـاعِ

كـمـغـبـونٍ يـعضُ عـلـى يـديـه
تـبـيَّـن غـبـنـه بـعـد الـبـيـاعِ

قيس

(١)

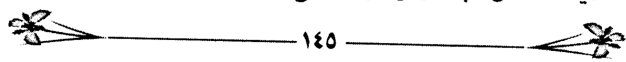
ربما كان للجنون درجاتٌ وأحوال وهو يتراوح – فى اللغة – ما بين الإعجاب وزوال العقل..

والعاشق بطبيعته لا يستقيم على حالة واحدة.. فهى تعلو وتهبط وتتذبذب استجابة لحالة المعشوق.. واستجابة لما يبدو عليه حبل الوصل بينهما من الشد أو الارتخاء.. ومن الهجر أو الإقبال.. ومن الوداع أو اللقاء.. وهكذا.

ومن ثم فإنها حالات نفسية لا تظهر العاشق بمظهر العاقل المتزن.. بل تدخله إلى دائرة الجنون فى أى زاوية من زواياها.

ونحن الآن نطرق هذه الدائرة من بوابتها الكبيرة.. لتقودنا إلى إحدى زواياها حيث نصْطحب أحد العشاق المجانين.

إنه قيس بن ذَريح بن سُنَّة بن حُذافة من قبيلة كنانة.. وكانت تسكن فى ضواحى المدينة المنورة.. وهو عاشق الحجاز.. عاصر صديقه عاشق نجد قيس بن الملوح.

أما معشوقته فهى لبنى بنت الحُباب.. من بنى كعب بن خُزاعة.. فى ضواحى مكة.

وحكايتهما لا يختلف عليها الرواة كثيرًا إلا فى نهايتها.. وقد أخبرنا الأصبهانى أنه استطاع أن يجمع أطرافها من مشايخه حتى ألف ذلك فى حديث متسق، إلا ما جاء مفردًا وعسر إخراجه عن جملة النظم فذكره على حدة.

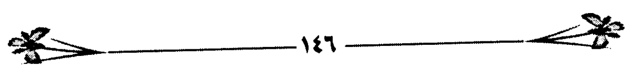
كما أجمع الرواة أيضًا أن قيسًا كان رضيع الحسين بن على.. نشآ معًا وتربيا معًا.. توثقت صلتهما طوال حياتهما.

أما أبو قيس فقد كان ذا ثراء وحسب وفيرين.. وكان يسكن حاضر المدينة وقومه فى ظاهرها.

وتبدأ خيوط قصة العاشقين.. لتكون من أكثر القصص ثراء وفنية.. فهى تتضمن الصراع بألوانه المختلفة وأبطاله المختلفين أيضًا، وهى ترسم شخصيات القصة بدقة متناهية.. وهى تسوق عادات وتقاليد وقيمًا تخصُّ تلك البيئة العربية البدوية ولا تكاد تحيد عنها، وحينما لعبت الظروف.. وانحرفت العادات والتقاليد عن مسارها قليلاً.. واجهتنا القصة بسلوكيات غريبة بعيدة عن المنطق والعاطفة والمألوف.

(٢)

وتبدأ قصتنا بهذا البيت الذى ولد فيه قيس وحيدًا لوالديه.. مما جعله موضع احتفاء وتدليل ورعاية من أمه.. وموضع تقدير ومحبة من أبيه.



ويفتح قيس عينيه على هذه الحياة الرغدة.. وهذا الحب الوفير.. وهذه القبيلة (عُذرة) التى اشتهرت بالعاطفة المتدفقة.. وجمال النسوة.. وشاعرية الرجال.

ويترقرق على لسانه الشعر.. يصف به جمال الطبيعة وجمال المرأة.. لكنه يحس فى داخله دائمًا أن المرأة لم تدخل بعد إلى ساحته.. فمازال الشعر مدخرًا حتى يجد معشوقته.. فيغرقها شعرًا وعشقًا.

وربما تلعب الأقدار دورها فى صنع هذا التواصل بين قلبين.. ثم يجتهد العاشقان فى وضع منطق ما لما يحدث.. وحينما يعجزان عن ذلك.. يتركان الساحة للعاطفة المشتعلة تفسر لهما ما عجزا عنه.

لقد ساقت الأقدار قيسًا إلى خيام بنى كعب بن خزاعة.. وكان الحر قد احتدم واشتد.. فاستقى ماءً من إحدى الخيام.. وكانت خيمة لُبنى بنت الحُباب الكعبية.. والعرب مشهورون بالكرم وإيواء الضيف.

وبرزت إليه لبنى امرأة مديدة القامة.. بهية الطلعة.. حلوة الكلام.. سهلة النطق.. فناولته الماء.

كان يشعر بالعطش الشديد.. لكنه حينما رآها ازداد عطشه.. ولم يروه الماء.. فقد وقعت فى نفسه .. وأضرمت فى داخله نارًا لا تهدأ.

أما لبنى فقد وجدت قيسًا قد أجهده السفر والحر.. فعرضت عليه أن يستريح عندهم.. فأجاب كأنه كان ينتظر ذلك منها.. فمهدت له متكأ.. ودعت أباها فرحب به.. ونحر له وأكرمه.

ولم يطل مقام قيس لدى لبنى.. فقد استراح وشبع.. ولم يجد سببًا فى إطالة المقام.. فانصرف شاكرًا ذاكرًا.. وأحس بعشق لبنى يثور داخله ويشتعل.. وحاول إطفاءه دون جدوى.. فتفجر شعرًا فيها حتى شاع شعره وتناقله الناس.

ماذا يمكنه أن يفعل الآن وقد ملكت لبنى عليه كل شىء؟

وجد نفسه مسوقًا إليها مرة أخرى.. فرآها تزيده حفاوة وكرمًا.. فوجدها فرصة سانحة.. لكى يشكو لها ما يلقى من حبها.. وكاد يجن حينما وجدها أيضًا هى الأخرى تشكو له ما تلقى من حبه.. وأطال العاشقان شكواهما.. وأدرك كل منهما ماله عند صاحبه.

وفجأ يصمتان.. ماذا بهما؟

إنهما يعرفان تمامًا ما يحدث للعشاق الشعراء.. ويعرفان تمامًا أن العرب لا يسلمون بأن يتزوج الرجل فتاة منهم قد تغزل بها وأنشد فيها الأشعار.

لكما الله إذن أيها العاشقان!

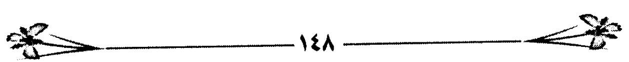
وهل يمكن أن تلعب الأقدار دورًا آخر يختلف عن كل قصص العشق.. ربما!

(٣)

يودع قيس لبنى وفى قلبه شىء عظيم..

إنه ينطلق إلى أبيه الذى يقدره ويحبه.. ويصارحه بما آل إليه حاله من حب لبنى.

كان أبوه جالسًا مستريحًا.. وكان الحوار بينهما يسوده الحب والهدوء!



تساءل الأب: من لبنى هذه يا بنى؟

قال قيس: إنها بنت الحباب الكعبية يا أبى.

ورأى الأب أنه ينبغى أن يتخلى عن راحته.. فولده يريد أن يتمرد على تقاليد القبيلة.. ويتخلى عن بنات عمه إلى فتاة أخرى من قبيلة أخرى.

ماذا يفعل.. وليس له غير قيس من الأولاد؟

رأى أن عليه إقناع ولده بهدوء.

قام الرجل من جلسته وضم ولده إليه وأجلسه جانبه وقال مبتسمًا:

– يا بنى لا حاجة لك بفتيات غريبات.. عليك بإحدى بنات عمك فهن أحق بك.

قال قيس: لكننى أحب لبنى يا أبى.

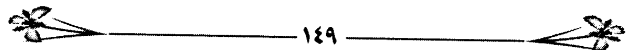
قال الرجل: أليست بنات عمك أحق بك وبثروتى.. وفيهن أجمل من فتاتك هذه.. انطلق يا قيس.. وعد إلى عقلك.. وفكر فيما قلته لك.

وينصرف قيس حزينًا.. لقد بدأت الأشواك تنبت فى طريقه.. لكن لا يزال أمامه أمل.. إن أمه لا تزال تدلله.. وتقدم له الحب.. وتحقق له ما يريد.. ولن تخذله فى هذا الأمر.

أسرع قيس إلى أمه.. وشكا إليها حاله.. واستعان بها على أبيه.. وطال بينهما الحوار.. لكنه انتهى كما انتهى مع أبيه من قبل.

هل يبقى له معين بعد؟

ويتذكر قيس صديقه ورضيعه الحسين بن على بن أبى طالب.. سبط النبى عليه السلام.. إنه من أهل البيت.. ولابد أن له شأنًا لدى العرب جميعًا.

لن يخسر شيئًا لو ذهب إليه وطلب منه الوساطة لدى أبيه.. ولدى أبى لبنى أيضًا.

ويقبل الحسين رضي الله عنه الوساطة.. وينطلق مع قيس إلى أبى لبنى.. ولما دخلا عليه رحب بهما.. وأعظم الحسين وقام إليه مرحبًا متعجبًا:

- خيرًا يا بن رسول الله.. ما جاء بك إلينا.. ألا بعثت إلىّ فأتيتك أنا.

قال الحسين:

إن الذى جئت فيه يوجب قصدك.. وقد جئتك خاطبًا ابنتك لبنى إلى قيس بن ذريح.

قال الرجل: يا بن رسول الله.. ما كنا لنعصى لك أمرًا.. وما بنا عن الفتى رغبة، ولكن أحب الأمر إلينا أن يخطبها ذريح أبوه.. وأن يكون ذلك عن رضاه.. فإنا نخاف إن لم يسع أبوه فى هذا أن يكون عارًا وسبة علينا.

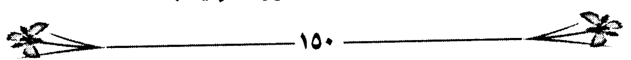
قال الحسين: الحق معك يا أبا لبنى.

وينطلق الحسين إلى ذريح حافيًا على حر الرمل.. وكان القوم مجتمعين.. فقام الجميع إليه إعظامًا وترحيبا.

فقال لذريح: أقسمت عليك إلا خطبت لبنى لابنك قيس.

قال ذريح: السمع والطاعة لأمرك.

وقام الجميع ومعهم الحسين حتى أتوا لبنى فخطبها ذريح على قيس إلى أبيها وزوجه إياها.. وزفت إليه بعد ذلك.



(٤)

وكان قيس أبر الناس بأمه.. لكن يبدو أن عشقه للبنى قد ألهاه عن مواصلة هذا البر.. وأحست أمه بذلك فجعلت تحدث نفسها:

– لقد شغلت هذه المرأة الغريبة قيسًا عن برى ورعايتى ومحبته لى رغم أنها عاقر لا تلد.. وتثور فى داخلها عاطفة الغيرة والانتقام.. فقد استأثرت لبنى بوحيدها.. وعزمت على التفريق بينهما بالكيد والمراوغة.

ويحدث أن يصاب قيس بمرض شديد.. مكث فيه طويلاً.. فلما برئ منه دخلت على زوجها ذريح تقول:

– أرأيت كيف مرض قيس.. لقد خشيت أن يموت وقد حرم الولد من هذه المرأة.. وأنت ذو مال.. ومن حقك أن تنعم بحفيد يخلد اسمك.

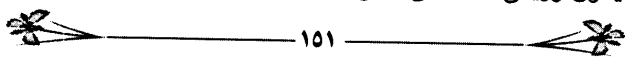
قال الرجل: ربما تأتينا لبنى بولد قريبا.

قالت أم قيس: إن لها وقتًا لم تنجب فيه.. فكيف تأمل ذلك فى الغد.. إنك شيخ كبير.. وأخشى أن يضيع مالك بلا وريث.. فزوج ولدك بغيرها لعل الله يرزقه ولدًا.

لقد ضربت أم قيس على هذا الوتر الحساس.. لدى زوجها .. وأخذت تلح عليه.. وتستخدم كل أسلحتها فى إقناعه.. حتى اقتنع.

وذات يوم كان ذريح مع قومه مجتمعين.. فدعا ولده.. وقال له:

– يا قيس.. لقد دعوتك أمام قومك حتى يكونوا شهودًا علينا.. لقد أصابتك علة شديدة يا ولدى.. وأنجاك الله منها.. لكنى خفت عليك ولا ولد لك وليس لى سواك.. وامرأتك هذه ليست ولودًا.. فمن يكون وريثى يحفظ لى مالى وبيتى.

قال قيس: وبماذا تشير على يا أبى.

قال ذريح: تتزوج إحدى بنات عمك لعل الله أن يهب لك ولدًا تقر به عينك وأعيننا.

وهنا صاح قيس: لست متزوجًا غيرها أبدًا يا أبى.

قال ذريح: إن فى مالى سعة وكثرة.. فاختر ما شئت من الإماء.

قاطعه قيس: لن أسوءها بشىء من هذا والله.

وتعقد الموقف.. وهمهم الجميع.. ولم يجد الأب سوى التهديد.. قال:

– أقسم عليك أن تطلقها.

فأبى قيس أن يفعل وقال:

– الموت والله أيسر علىّ من هذا، ولكنى أعرض عليك واحدة من ثلاث.

قال ذريح: وما هى؟

قال قيس: لك أن تتزوج.. فلعل الله أن يرزقك ولدًا غيرى.

قال ذريح: لم يعد لدى ما يحقق ذلك يا ولدى.. فقد بلغت من الكبر مداه.

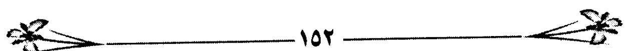
قال قيس: إذن دعنى أرحل عنك بامرأتى وأريحك منى.

قال ذريح: ولا هذه أرضاها.

قال قيس: أدع لبنى عندك وأرتحل وحدى لعلى أسلوها.

قال ذريح: لا أرضى إذا لم تطلقها.

ثم أقسم ذريح إذا لم يفعل قيس ما يريده لا يظللهما سقف بيت واحد.



لقد وصل الموقف إلى طريق مسدود.. وعصف ذريح بقلب ولده قيس وقلب لبنى معًا.. ماذا يفعل قيس.. وقد أقسم أبوه؟

ويخرج قيس فى حر الشمس.. ويجيئه أبوه ويظلله بردائه ويَصْلَى هو بالحر حتى يفىء الظل فينصرف عنه.. ثم يدخل قيس إلى لبنى فيعانقها وتعانقه ويتباكيان ويتعاهدان على الوفاء وتقول له:

– يا قيس.. لا تطع أباك.. فتهلك وتهلكنى.

ويرد قيس: لن أطيع أحدًا فيك أبدا.

ومكث قيس على هذه الحال سنوات – اختلف فى عددها الرواة – ويجتمع القوم على قيس يلومونه ويحذرونه من غضب الله فى الوالدين.. ومازالوا به حتى استسلم وطلق زوجته.. لترحل إلى قومها.

ويفيق قيس على ما آل إليه حاله.. لقد فعل ذلك بنفسه.. فى لحظة ضعف واستسلام.. إذن لقد وقعت الواقعة.

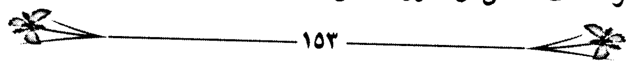
لقد أفاق يبكى عاطفته وعقله ويندب حظه.. وأخذ يتذكر لبنى وأيامها الحافلة الجميلة.. وكيف تحولت حياته الهانئة السعيدة إلى جزع وندم وأسف على ما اقترف لسانه ويده.

ولم يجد أمامه سوى قصائده يبثها دموعه وحسراته:

وإنى لَمُفْنٍ دمع عينى بالبكا   حذار الذى قد كان أو هو كائنُ

وقالوا غدًا أو بعد ذاك بليلة   فراق حبيب لم يبن وهو بائنُ

وما كنت أخشى أن تكون منيتى   بكفيك إلا أن ما حان حائنُ



ويذهب عنه عقله.. ويشتد حنينه إلى لبنى.. ويتأمل حاله.. فإذا بغراب يسقط قريبًا منه جعل ينعق وينعق.. فتطيَّر منه.. وبكى وهو ينشد:

لقد نادى الغراب ببين لبنى ... فطار القلب من حذر الغراب
وقال غدًا تباعد دار لبنى ... وتنأى بعد ود.. واقتراب
فقلت تِعست ويحك من غراب ... وكان الدهر سعيُك فى تباب

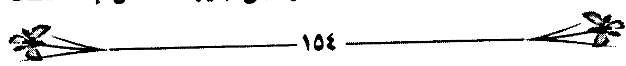
ويعيش قيس على الذكرى الأليمة.. حين ارتحلت لبنى إلى قومها وهو يقف ناظرًا إليها حتى غابت عن عينيه وهو لا يفعل شيئًا.. إنه يتذكر هذا الموقف ويتذكر بعيرها كيف كان يحملها وأين كان يسير.. فينطلق إلى أثر خف البعير وينكب عليه يقبله.. ويرجع يقبل موضع مجلسها وأثر قدميها، ويراه قومه وهو يفعل ذلك فيلومونه ويعنفونه على تقبيل التراب.. فيقول:

وما أحببت أرضكم ولكن ... أقبل إثر من وطئ الترابا
لقد لاقيت من كلفى بلبنى ... بلاء ما أسيغ به الشرابا
إذا نادى المنادى باسم لبنى ... عييت فما أطيق له جوابا ..

(٦)

واشتد الهم على قيس وأصابه هزال وذهول شديدان.. وضاقت السبل فى وجهه.. فأشار قومه على أبيه بأن يزوجه امرأة جميلة لعله يسلو بها عن لبنى.. فدعاه إلى ذلك فأجابه قيس:

لقد خِفْتُ ألا تقنع النفس بعدها ... بشىء من الدنيا وإن كان مقنعا
وأزجر عنها النفس إذ حيل دونها ... وتأبى إليها النفسُ إلا تطلّعا



وكانت لبنى تسمع بوجده وحسراته.. فلا يهنأ لها عيش.. وتبكى مصيرها ومصيره.. ويجتمع أصدقاء قيس حوله.. ويرقون لحاله.. ويعدونه أن يخرجوا معه إلى ديار لبنى لعله يحظى برؤيتها.. فمضى معهم وهو ينشد:

لقد عذبتنى يا حب لبنى ... فقع إما بموت أو حياة
فإن الموت أروح من حياة ... تدوم على التباعد والشتات
وقال الأقربون تعزَّ عنها ... فقلت لهم إذا حانت وفاتى

ويصلون إلى ديار لبنى.. فتقع عينه عليها.. ويخر مغشيًا عليه.. ليعودوا به مرة أخرى أشد يأسًا وحسرة.

ويشير عليه نفر آخر أن يحج بيت الله الحرام.. لعله يسلوها.. فحج ورآها هناك فعاوده الحنين والجنون وأخذت دموعه تنهمر.. وعاد من الحج باكيا مهمومًا.

ويشير بعض القوم على أبيه أن يدعه يسير فى أحياء العرب لعل عينه تقع على امرأة تعجبه.. فأقسم أبوه عليه أن يفعل.

سار قيس فى أحياء العرب حتى نزل بحى من فَزارة.. فوقعت عينه على جارية حسناء قد حسرت برقعها عن وجهها.. ففتن بها وسألها:

– ما اسمك يا جارية؟

قالت: اسمى لبنى.

فسقط غائبًا عن وعيه.. فنضحت الجارية عليه الماء ودهشت.. ثم قالت:

– إن لم يكن هذا قيس بن ذريح.. إنه لمجنون!

فأفاق قيس.. وأخبرها بنسبه..

فأقسمت عليه أن يأكل من طعامها.. ثم جاء أخوها فرحب به وطلب منه أن يقيم لديه.. لإعجابه بحديثه.

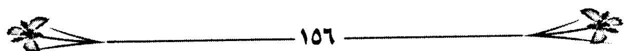
وتنتهي هذه الإقامة بزواج قيس من لبنى الفزارية.

وتبلغ الأخبار معشوقته لبنى.. فيصيبها غم شديد وتقول:

– إنه لغدار، ولقد كنت أمتنع عن الزواج من أجله.. فالآن أجيب قومي.

وقد كان أبو لبنى شكا قيسًا إلى معاوية وأعلمه تعرضه لها بعد الطلاق.. فأهدر دمه.. إن فعل.. وأمر أباها أن يزوجها رجلاً يسمى خالد بن حلّزة من غطفان فزوجها أبوها.. واجتمعت نساء الحي ليلة زفافها ينشدن:

لبيني زوجها أصبح لا حُرٌّ بواديه
له فضل على الناس بما باتت تناجيه
وقيس ميت حي.. صريع في بواكيه
فلا يبعده الله.. وبعدًا لنواعيه



ويدري قيس بزواج لبنى.. صحيح إنه البادئ بالزواج.. لكنه لا يطيق أن تكون لبنى لغيره.. ولهذا ركب من فوره ضاربًا بقرار معاوية عرض الحائط.. حتى أتى ديارها.. فخرجت إليه النساء وواجهنه:

– ماذا تريد يا قيس.. لقد رحلت لبنى مع زوجها.

وواجهه الفتيان بشيء من هذا وهو لا يجيبهم حتى أتى موضع خبائها فنزل عن راحلته وجعل يتمرغ في موضعها ويمسح بخده ترابها وهو يبكي:

إلى الله أشكو فقد لبنى كما شكا ... إلى الله فقد الوالدين يتيمُ
يتيم جفاه الأقربون فجسمه ... نحيل وعهد الوالدين قديمُ
بكت دارهم من نأيهم فتهللت ... دموعى فأىَّ الجازعين ألومُ
أمستعبدًا يبكى من الشوق والهوى ... أم اخر يبكى شجوه ويهيمُ

(٧)

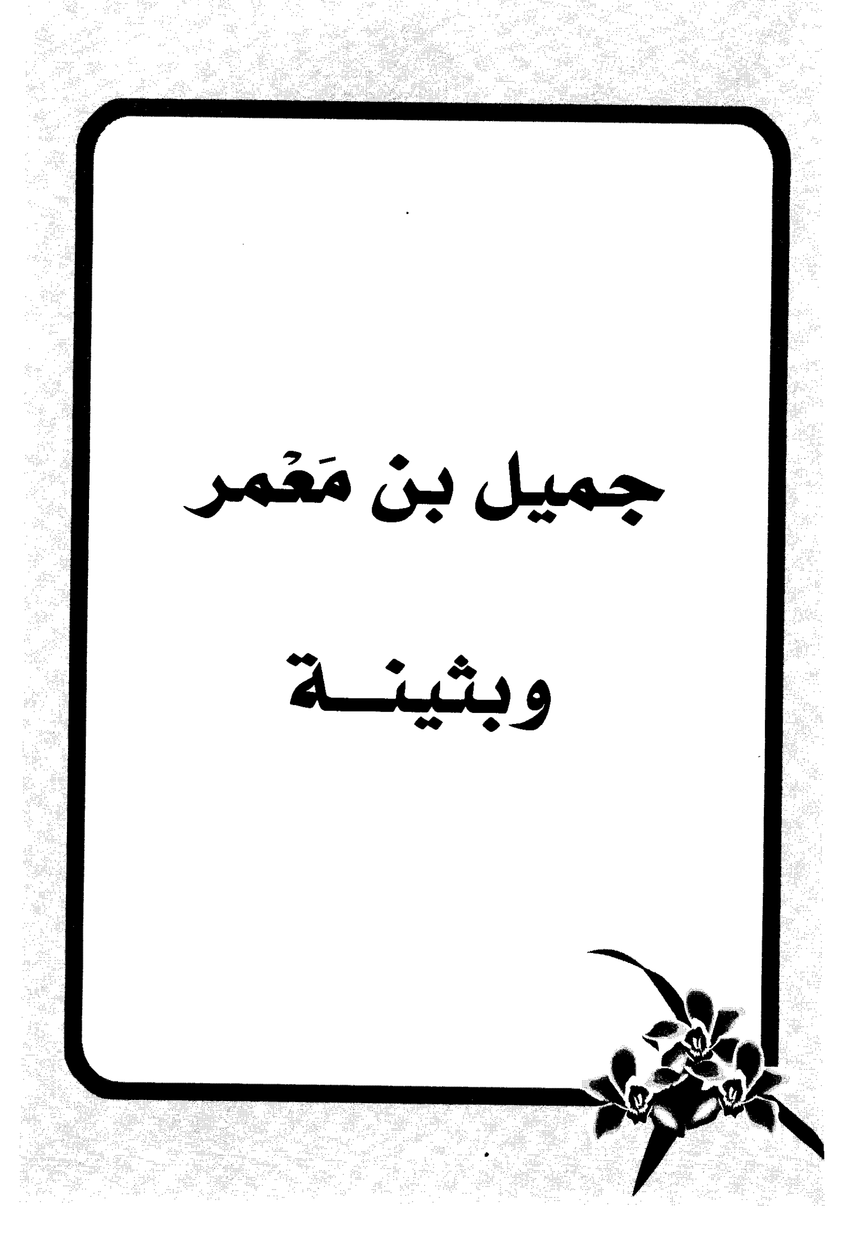
أما زوج لبنى فقد غضب وساءت علاقته معها.. حتى أن لبنى طلبت منه الطلاق وتتعقد الأمور.. ويلجأ قيس إلى يزيد بن معاوية ليتوسط له لدى أبيه حتى يوقف أمره السابق بإهدار دمه.. وتنجح وساطة يزيد ويعفو معاوية عن قيس وتكون النهاية التى يختلف فيها الرواة.

فمنهم من قال بطلاق لبنى من زوجها ليعيدها قيس إلى عصمته.. ولم تزل معه حتى ماتا.

ومنهم من يقول إنها ماتت قبله فخرج ومعه جماعة من أهله فوقف على قبرها باكيًا حتى أغمى عليه.. فحملوه إلى بيته وهو لا يعى شيئًا.. ولم يزل عليلاً لا يفيق ولا يجيب حتى مات بعد ثلاثة أيام فدفن إلى جوارها.

ومهما كانت النهاية.. فقد جن قيس بلبنى.. وسجل فى شعره حالات هذا الجنون.. بعد رحلة صراع طويل عاناها العاشق من أجل الوصول إلى معشوقته.. التى هى فى عينيه تستحق أكثر من الجنون.





جميل بن مَعْمر

وبثينــة



هـى الـبـدرُ حسنًا والـنسـاءُ كـواكبٌ
وشـتــان مــا بين الـكـواكب والـبـدْرِ
لقد فُضّلتْ حُسْنا على الناس مثلما
عـلـى ألْـف شـهرٍ فضّلت ليلةُ القدْر

جميل

(١)

يمثـل الـقـرن الأول الـهـجـرى تحولاً خـطيرًا فـى المجتـمـع الإسلامى.. فقد انتقل المجتمع من نظام إلى نظام.. وخرج النظام السياسى من الخلافة الإسلامية إلى الملك الموروث.. ومن الحجاز إلى الشـام.. ومـن بسـاطـة الحيـاة الـديـنـيـة إلى مـظـاهـر الحيـاة الحضرية التى استقت بعض ملامحها من حضارة الفرس وبقايا حضارة الروم.

وتتناثر القبائل هنا وهناك.. وتبرز من بينها قبيلة بنى عذرة من قضاعة التى تسكن الحجاز بوادى القرى على طريق مصر والشام – تلك القبيلة التى اشتهرت بعشاقها الشعراء.. وبناتها الجميلات.

ولقد عاش صاحبنا جميل فى القرن الأول الهجرى.. فى بادية وادى القرى مهد الغزل والعشق.

أما جميل فهو ابن عبد الله بن مَعْمَر بن الحارث.. وهو شاعر فصيح مقدَّم.. جامع للشعر والرواية.. كان راوية هُدبة بن خشرم.. وكان هدبة شاعرًا راوية للحطيئة، وكان الحطيئة شاعرًا راوية لزهير وابنه.. وكان جميل يكنى أبا عمرو.



وكان كثير بن عبد الرحمن (كثير عزة) راوية لجميل.

أما صاحبة جميل فهى بثينة بنت حبأ بن ثعلبة بن ربيعة.. حيث تلتقى مع جميل فى النسب.. وكانت تكنى أم عبد الملك.

وقصة هذين العاشقين واحدة من هذه القصص المجنونة التى تنتسب إلى بنى عذرة.

ويجمع المؤرخون على أن الجمال والعشق فى عذرة كثير.. ومن أخبارهم أنه قيل لأعرابى من العذريين:

– ما بال قلوبكم كأنها قلوب طير تنماث (تذوب) كما ينماث الملح فى الماء.. أما تجلَّدُون؟

قال: إنا لننظر إلى محاجر أعين لا تنظرون أنتم إليها.

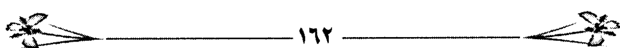
وقيل لآخر: ممن أنت؟

فقال: من قوم إذا أحبوا ماتوا!

فقالت جارية سمعته: عذرىٌ وربِّ الكعبة!

أما انتشار ظاهرة المآسى العذرية فى هذه القبيلة فلا يمكن أن يفهم إلا على أساس من فهم الظواهر الاجتماعية عامة.. فهى (عدوى اجتماعية) جعلت من هذا الحب بدعًا بين شباب القبيلة يلعب فيه التقليد دورًا كبيرًا يدفع كل شاب إلى صاحبة له ليُعرف بها كما عرف غيره من شبابها بصاحباتهم.. ثم تتدخل الظروف الاجتماعية لتطبع هذا الحب بالطابع العذرى المعروف.

وقد عبر عن ذلك أحد أبنائها حين ترك الحى بقوله: ثلاثون قد خامرهم السل وما بهم داء إلا الحب!



وتعتبر مأساة جميل وبثينة من أروع الأمثلة لهذا الحب.. وأدق نموذج عرفته البادية.

وإذا كانت مأساة قيس ولبنى - على شهرتها الواسعة - أشد هذه المآسى اختلاطًا واضطرابًا فى أخبارها.. لكثرة ما دخلها من وضع الرواة وتزيُّد القصاص.. وأوهام السُّمار.. فإن قصة جميل وبثينة لم ينلها هذا الاختلاط.. ولا تختلف مصادرها كثيرًا.. ومن ثم فهى أقرب هذه المآسى للواقع.. حيث نجت من عبث الرواة والقصاص والسُّمار.

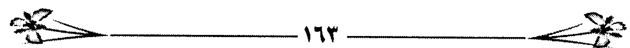
واشتهر جميل بنسبته إلى بثينة.. لكن قوم جميل كانوا أعز من قوم بثينة وأكثر غنى.. وكان أبوه نفسه ذا مال وفضل وقدر فى أهله.

ويذكر المؤرخون أن جميلاً كان وسيمًا قسيمًا طويل القامة.. عريض المنكبين متأنق الملبس.

أما بثينة فيقول العقاد:

وصفها جميل بعين المحب ووصفها غيره كما يراها كل من رآها.. فخلص لنا من جملة هذه الصفات أنها كانت أدماء طوالة - كما قال عمر بن أبى ربيعة - وأنها تفرع النساء طولاً، كما قال الرجل الذى حمل إليها نعى جميل.

وكانت - فى وصف النساء - حسناء بدوية لم يثقلها ترف الحاضرة.. ولم يعرفها شظف العيش.. فهى رشيقة معتدلة الخلق.. سامقة الخلق.. مستحبة الملامح لمن يراها.. مفتونًا بها أو غير مفتون.



(٢)

ماذا عن هذين العاشقين.. وماذا عن مأساتهما؟

إن فصول المأساة تبدأ بحادث عابر.. تتفجر منه كل الروافد العاطفية حتى نهاية المدى.

كان الفتى جميل فى أول عهده بالعشق يهوى (أم الجسير) أخت بثينة الكبرى.

وذات يوم أقبل جميل بإبله حتى أوردها واديًا يقال له (وادى بغيض) فأسلم الفتى نفسه للراحة قليلاً تاركًا إبله ترعى كما تشاء.

وكان يقطن فى طرف هذا الوادى قوم بثينة.

وتصادف فى هذا اليوم أن خرجت الفتاة بصحبة جارة لها.. تردان الماء.. فمرتا على بعض من إبل جميل.. فنفرته.

وشق ذلك على الفتى.. فقام من ضجعته إلى بثينة.. تلك الفتاة الصغيرة التى خالها حمقاء.. فعنفها على سلوكها.. وسبَّها.. فردت عليه سبَّه بسب آخر.. وغالت فيه.

وأدرك جميل كم هى رقيقة تلك الفتاة.. وكم هو مليح سبابها.. فشعر بسهم الحب ينفذ إلى عمق قلبه.. فأحب سبابها.. وعلق بها.

أية عاطفة طاغية تلك التى تقيمها الإساءة والحرمان والسِّباب!

وكأن قلبه كان ينفتح فى شوق جارف لعاطفة تملؤه.

وينصرف جميل عن أم الجسير إلى أختها الجميلة بثينة.. وفى ذلك يقول:

وأول ما قاد المودة بيننا بوادى بغيض يا بثين سبابُ
وقلنا لها قولاً فجاءت بمثله لكل كلام يا بثين جوابُ

ترى أى سباب ذلك الذى عرف طريقه بلون آخر إلى قلب جميل.. إنه كما يعترف جميل:

ولست على بذل الصفاءِ هويتُها   ولكن سبتْنى بالدلال مع البُخلِ
بدت بدوة لما استقلت حمولُها   ببثنةَ بين الجُرف والحاجِ والنخلِ

وتبدأ بذلك أول سطور قصة العشق بين جميل وبثينة.. وتتتابع الفصول يومًا بعد يوم حتى ينسى المؤرخون نسب جميل.. ويذكروا فقط اسمه مقرونًا بمعشوقته بثينة.

(٣)

ويوقف جميل شعره وحياته على بثينة.

ويجتمع إليه أصدقاؤه يثيرون شجنه وعواطفه.. ويسألونه: كيف يرى بثينة.. وكيف ينسب بها.. فيرد عليهم:

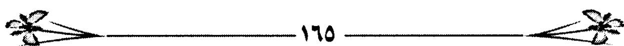
وإنى لأرضى من بثينة بالذى   لو ابصره الواشى لقرت بلابلُه
بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى   وبالأمل المرجو قد خاب آملُه
وبالنظرة العجلى وبالحوْل تنقضى   أواخره لا نلتقى وأوائلُه

ويسرع إلى بثينة من يخبرها بأن جميلاً قد نسَّب بها.

كان من الممكن أن يحسب جميل حساب التقاليد العربية التى تحرم النسيب.. وقول الشعر فى النساء.. فهى تقضى بالتفريق بين العاشق ومعشوقته إذا هو تجرأ وفضحها.

وتقضى التقاليد أيضًا أن ترضخ الفتاة لرأى أبيها أو عشيرتها حينما تتخذ قرارها فى التفريق بينها وبين من ينسب بها.

لكن ما حدث فى قصة هذين العاشقين كان مختلفًا.



فحينما أخبرت بثينة أن جميلاً قد نسب بها.. حلفت بالله لا يأتيها على خلاء إلا خرجت إليه.. ولا تتوارى منه.

أى تحد وجنون وجسارة تلك التى اتحدت فى قلب وعزيمة بثينة.. لقد سمحت لجميل أن يأتيها عند غفلات الرجال.. فيتحدث إليها ومع أخواتها.

وكان لابد أن يشيع أمر العاشقين بعد أن تناقلت الألسن شعر جميل حتى بلغ رجال عذرة ما كان يحدث من لقاء بينهما.

ويثور الرجال ويغارون على بنت عشيرتهم.. ويجتمعون ويرأسهم عبيد الله بن قُطْبة.

ويترصدونه فى موعده بجماعة من بضعة عشر رجلاً..

ويقبل جميل فى موعده.. راكبًا ناقته.. حتى وقف على باب بثينة وأم الجُسير.. وهما يحدثانه وهو ينشدهما شعره.. والقوم عن قرب ينصتون:

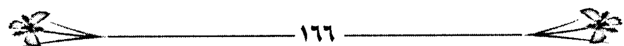
حلفتُ برب الراقصات إلى منًى ... هُوِيَّ القطا يجتزن بطن دفينِ
لقد ظن هذا القلب أن ليس لاقيًا ... سُليمى ولا أم الجُسيْر لحينِ
فليت رجالاً فيك قد نذروا دمى ... وهمُّوا بقتلى يا بثين لقونِى

وتثور دماء القوم المترصدين.. فيثبون عليه.. ويرميهم بناقته.. فتسبق به وهو يقول:

إذا حمع الاثنان جمعًا رميتهم ... بأركانها حتى تُخَلَّى سبيلُها

فكان هذا أول سبب المهاجاة بينه وبين عبيد الله بن قطبة.

ويدرك العاشقان أن الأسوار بدأت ترتفع.. والأشواك تتناثر فى طريقهما.. وأحس جميل مدى الصعوبة فى تلاقيهما.. فقد بدأ



موعده معها فى إخلاف متواصل.. مما ضاعف الشوق والوجد والجنون بداخله.

ونلاحظ أن شعر جميل فى معظمه بثٌّ للشكوى والمرارة.. لكثرة ما حيل بينه وبين بثينة حتى نجده يجاهر بأمنيته ولو مرة واحدة.

ألا ليت شعرى هل أبيتنَّ ليلة بوادى القرى.. إنى إذن لسعيدُ
وهل ألْقَيْن فردًا بثينة مرةً تجود لنا من ودِّها.. ونجودُ
وقد تلتقى الأشتات بعد تفرق وقد تدرك الحاجات وهى بعيدُ
يقولون جاهد يا جميل بغزوة وأى جـــهـــادٍ غـــيـــرهـــن أريـــدُ

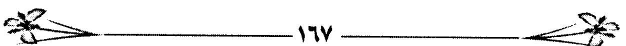
لكن جميلاً يحب على حرمان.. ومن شأن المحب دائمًا أن يسوقه جنونه وإخلاصه إلى التماس العذر لمحبوبه.

لقد وجد جميل لبثينة أعذارًا فى كل مناسبة.. ومن شأن هذه الأعذار أن تبعد عن نفسه البغض والغضب.. وتجعله يحيا حياة الوهم الجميل.. حياة المناجاة العميقة الحلوة الممزوجة باللوم الرقيق.

إذا قلت ما بى يا بثينة قاتلى من الحب قالت: ثابت ويزيدُ
وإن قلت ردى بعض عقلى أعشْ به مع الناس قالت: ذاك منك بعيد

لكنه لا يفقد الأمل.. بل يتوهم كل شيء حسنًا.. يتوهم اللقاء.. ويتوهم الحديث والحوار، ويحاول ذلك جميل مرة ومرة ومرات ومرات حتى يلتقيا.

لقد استطاع الواشون أن يلعبوا دورهم ويحاولوا الإيقاع بين العاشق والمعشوق وجميل لا يدرى من ذلك شيئًا.



ويحدث أن يلتقيا.. فتواجهه بثينة:

– ويحك يا جميل.. أتزعم أنك تهواني.. وأنت الذى تقول:

رمى الله فى عينى بثينة بالقذى وفى الغر من أنيابها بالقوادح

ويخفق قلب جميل.. ويسرع فى دقاته.. فيطرق طويلاً ويبكى بكاء مرًّا ثم يقول:

ألا ليتنى أعمى أصم تقودنى بثينة لا يخفى علىَّ كلامها

ومرة قال جميل لكثير: خذ لى موعدًا من بثينة.

فقال كثير: هل بينك وبينها علامة؟

فقال جميل: عهدى بها وهم بوادى الدوم.. أن تجد أباها قاعدًا بالفناء.. فسلم عليه.. ثم أنشده.

وينطلق كثير إلى وادى الدوم.. فسلم على أبيها وأنشده:

فقلت لها: يا عز أرسلُ صاحبى إليك رسولاً والموكل مرسَلُ

بأن تجعلى بينى وبينك موعدًا وأن تأمرينى ما الذى فيه أفعلُ

وآخر عهدى منك يوم لقيتنى بأسفل وادى الدوم والثوب يُغسلُ

وهنا ضربت بثينة جانب خدرها وقالت: اخسأ اخسأ..

فقال أبوها مندهشًا أمرها: مَهْيَمْ يا بثينة – أى ماذا بك –

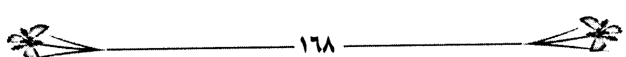
قالت: كلب يأتينا إذا نوَّم الناس من وراء الرابية..

ثم قالت بثينة للجارية: احضرى حطبًا لنشوى شاة لكثير.

فقال كثير: أنا أعجل من ذلك.

وانطلق كثير إلى جميل فأخبره بالأمر..

فقال جميل: إن الموعد الدَّومات.. وسأراها إذا نام الناس خلف الرابية.



(٤)

لم يكن أمام جميل إلا أن يذهب لخطبة بثينة.

لكن كيف يرضى أبوها وقد فضح ابنته.. وكان الرفض ورده خائبا.. وزوجها من فتى منهم يقال له نبيه بن الأسود العذرى..

ووجدها جميل فرصة للنيل من قوم بثينة.. فقومه أعزّ منهم.

ولو أن ألفًا دون بثنة كلهم   غبارى وكل حارب مزمع قتلى

لحاولتها إما نهارًا مجاهرا   وإما سرى ليل ولو قطعت رجلى

فلا تقتلينى يا بثين ولم أصب   من الأمر ما فيه يحل لكم قتلى

وأخذ يسخر مما فعله قوم بثينة.. ويهزأ بهم.. وكله عشق وجنون بحبيبته:

فليت رجالاً فيك قد نذروا دمى   وهموا بقتلى يا بثين.. لقُونى

إذا ما رأونى طالعًا من ثَنيَّة   يقولون: من هذا وقد عرفونى

يقولون لى: أهلاً وسهلاً ومرحبًا   ولو ظفروا بى خاليا قتلونى

وكان فى قوم بثينة واحد يقال له جوَّاس.. أخذ يهجو جميلاً.. ويذكر بسوء أختًا له.

وكان جميل قبل ذلك يحتقر جواسا ولا يأبه له.. فغضب جميل لذلك.. وواعد جواسًا بالمراجزة.

ووصف أحد آل العباس بن سهل يوم المراجزة فقال:

قدمت من عند عبد الملك بن مروان وقد أجازنى وكسانى بُردا – وكان ذلك البرد أفضل جائزتى – فنزلت وادى القرى.. فوافقت الجمعة بها فاستخرجت بردى الذى من عند عبد الملك وقلت: أصلى مع الناس.. فلقينى جميل – وكان صديقًا لى – فسلم

بعضنا على بعض وتساءلنا ثم افترقنا.. فلما أمسيت إذا هو قد أتانى فى رحلى فقال: البُرد الذى رأيته عليك تُعيرُنيه حتى أتجمل به فإن بينى وبين جواس مراجزة.. وتحضر فتسمع..

قلت: لا.. بل هو لك كسوة.. وكسوته إياه.. وقلت لأصحابى: ما من شىء أحب إلى من أن أسمع مراجزتهما.

فلما أصبحنا جعل الأعاريب يأتون متتابعين حتى اجتمع منهم بشر كثير.. وحضرت وأصحابى فإذا بجميل قد جاء وعليه حلتان ما رأيت مثلهما على أحد قط.. وإذا بردى الذى كسوته إياه قد جعله لباسًا لجمله.. فتراجز جميل وجواس – وكانت بثينة تكنى أم عبد الملك – فقال:

يا أم عبد الملك اصرمينى
فبيِّنى صرمىَ أو صلينى
أبكى وما يدريك ما يبكينى
أبكى حذار أن تفارقينى
وتجعلى أبعد منى دونى
إن بنى عمك أوعدونى
أن يقطعوا رأسى إذا لقونى
ويقتلونى ثم لا يودُونى
قد جربونى ثم جربونى
فإننى رام لمن يرمينى
أنا جميل فتعرفونى
وما تقنعت فتنكرونى




ولم يحل زواج بثينة دون إصرار جميل على لقائها.. وظلت العلاقة بينهما كما كانت من قبل.. يزورها سرًّا فى غفلة زوجها.. أو يلتقيان خارج البيت فى الخلاء.. وما بينهما سوى الطهر والعفاف.

وشكا أهلها إلى أهله.. وحدثه هو فى أمرها كثيرون فكان يجيب بأنه لا يستطيع أن يسلوها أو يبتعد عنها.. وشكا القوم إلى السلطان فأهدر دمه.

وسار بعض القوم إلى أبيه يشكون جميلاً.. وناشدوه الله والرحم وسألوه كف ولده ومنعه عما يتعرض له ويفضحهم فى فتاتهم.. فوعدهم بذلك وانصرفوا.

ويجلس الأب حائرًا.. كيف يستطيع أن يمنع ولده عما يحبه.. ويعشقه.. وإذا استطاع وفعل.. فلا خير فى بقية حياة ولده.. ولابد أن الهلاك سوف يلحقه.

ثم كيف له أن يرضى قوم بثينة ولا يتسبب فى قطع ما بينهما من صلات طيبة.

ويستدعى الأب ولده.. ويواجهه بالأمر قائلاً:

– يا بنى.. حتى متى وأنت ممعن فى ضلالك.. ألا تأنف من أن تتعلق بامرأة يخلو بها زوجها وينكحها.. وأنت عنها بمعزل.. ثم تقوم من تحته إليك فتغريك بخداعها.. وتوهمك بالصفاء والمودة.. وهى مضمرة لبعلها ما تضمره الحرة لمن ملكها.. فيكون قولها لك تعليلاً وغرورًا.. فإذا انصرفت عنها عادت إلى بعلها على حالتها المبذولة.. إن هذا لذل وضيم يا ولدى.. وما أعرف أخيب سهمًا ولا أضيع عمرًا منك.



أناشدك الله إلا كففت وتأملت أمرك.. فإنك تعلم أن ما قلته الحق.. ولو كان إليها سبيل لبذلت ما أملكه فيها.. ولكن هذا أمر قد فات.. واستبد به من قدر له وفى النساء عِوضٌ.. هن كثيرات.

فقال جميل: الرأى ما أريت يا أبى.. والقول كما قلت.. فهل رأيت قبلى أحدًا استطاع أن يدفع قلبه هواه.. أو ملك أن يسلى نفسه.. أو استطاع أن يدفع ما قضى عليه.. والله لو قدرت أن أمحو ذكرها من قلبى أو أزيل شخصها عن عينى لفعلت.. ولكن لا سبيل إلى ذلك.. وإنما هو بلاء بليت به لحيْن قد أتيح لى.. وأنا أمتنع من الذهاب إلى هذا الحى.. والإلمام بهم ولو مت كمدا.. وهذا جهدى ومبلغ ما أقدر عليه.. وقام جميل وهو يبكى.. فبكى أبوه لبكائه جزعًا لما رآه منه.. ويحاول جميل أن يسلوها:

فيا قلب دع ذكرى بثينة إنها   وإن كنتَ تهواها تضنّ وتبخلُ
وقد أيأست من نيلها وتجهمت   ولليأس إن لم يقدر النيلُ أمثلُ
وكيف ترجّى وصلها بَعدَ بُعدها   وقد جُذَّ حبل الوصل مما تؤمل

وعزم جميل على الخروج إلى الشام.. لكنه هجم فى الطريق على بثينة وقد وجد غفلة من القوم. فقالت له:

– أهلكتنى والله وأهلكت نفسك.. ويحك.. أما تخاف؟!

قال لها: هذا وجهى إلى الشام إنما جئتك مودعًا..

فحادثها طويلاً ثم ودعها وقال: يا بثينة.. ما أرانا نلتقى بعد هذا.. وبكيا طويلاً.




ويعود مرة أخرى.. ويشعر أن والى بنى أمية لا يزال يهدر دمه فيفر إلى اليمن.. حيث أخواله.. ويظل مقيمًا عندهم حتى عُزل الوالى فعاد إلى قومه ليجد قوم بثينة قد رحلوا إلى الشام.

ويظل العاشق المجنون يطارد محبوبته هنا وهناك.. وهى مطاردة لا تنم عن عقل ولا تفكير.. وإنما هى إحدى نوبات الجنون حين تتملك عاشقًا فقد توازنه.

إنها مطاردة بلا أمل.. فقد فرقت بينهما الحياة.

وتضيق به الدنيا.. وكان يصعد بالليل على ربوة عالية.. يتنسم الريح القادمة من نحو بثينة ويقول:

ألا ريح الشمال أما ترينى أهيم وأننى بادى النحولِ
هبى لى نسمة من ريح بثن ومُنى بالهبوب إلى جميل
وقولى يا بثينة حسب نفسى قليلك أو أقل من القليل

ويجلس جميل هادئًا متأملاً يذكر تلك الأيام التى كانا يلتقيان فيها خلسة.. وفجأة يبتسم بينه وبين نفسه.
لماذا تبتسم أيها العاشق المكدود؟!

لقد تذكر حينما ائتمن رهط بثينة عليها عجوزًا منهم يثقون بها.. يقال لها أم منظور.. فجاءها جميل وقال لها: يا أم منظور.. أرينى بثينة..

فقالت: لا.. والله لا أفعل.. قد ائتمنونى عليها.

فقال: أما والله لأضرنّك.

فقالت: المضرة والله فى أن أريكها.. فخرج من عندها وهو يقول:



ما أنس لا أنس منها نظرة سلفت بالحجر يوم جلتها أم منظور
ولا انسلابتها خرسًا جبائرها إلىَّ من ساقط الأوراق مستور

فبلغ هذان البيتان قوم بثينة.. فأقبلوا على أم منظور فحلفت لهم بكل يمين فلم يصدقوها.

لم يعد أمام جميل إلا التعزى بالذكرى القديمة.. وقرر أن يترك كل شيء ويشد رحاله إلى مصر لعلها تكون نهاية المطاف.
وظل قلبه يبكى بأشعاره:

ألا ليت أيام الصفاء جديد ودهرًا تولى يا بثين يعود
فنغْنى كما كنا نكون وأنتم صديق وإذ ما تبذلين زهيد
وقد تلتقى الأهواء من بعد يأسة وقد تطلب الحاجات وهى بعيد

لكن القدر لم يحقق لجميل ما تمنى.. فلم تلتق الأهواء بعد يأس.. ولم تدرك الحاجات على البعد.

لم تطل أيام جميل بمصر.. فقد أخذ النور يخبو.. وأحس أن الستار الأخير سوف يسدل عليه.. ماذا يفعل.

لقد دعا رجلاً صديقًا له وقال:

– هل لك فى أن أعطيك كل ما أملكه على أن تفعل شيئًا لى..؟

قال له الرجل: لك ما تشاء يا جميل.

قال جميل: إذا مت خذ حلتى هذه فى حقيبتى فاعزلْها جانبًا ثم كل شيء سواها لك.. وارحل إلى قوم بنى الأحب من عذرة – وهم قوم بثينة – فإذا صرت إليهم فاركب ناقتى ثم البس حلتى هذه واشققها ثم اصعد مرتفعًا من الأرض.. وصح بهذه الأبيات:



بكر النعيّ - وما كنى - بجميل   وثوى بمصر ثواء غير قفولِ
بكر النعي بفارس ذي همة   بطل إذا حمل اللواء مديلِ
ولقد أجر الذيل في وادي القرى   نشوان بين مزارع ونخيل
قومي بثينة فاندبي بعويل   وابكي خليلك دون كل خليل

فلما قضى جميل.. أتى الرجل قوم بثينة وفعل ما أوصاه به جميل.. فلما أتم الأبيات.. برزت إليه امرأة - وهي بثينة - يتبعها نسوة قد بزتهن طولا وبرزت أمامهن كأنها بدر قد برز في دجُنَّة.. وهي تتعثر في كسائها حتى أتت الرجل.. فقالت:

- يا هذا.. لئن كنت صادقًا لقد قتلتني.. ولئن كنت كاذبًا لقد فضحتني!

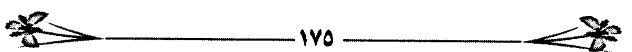
قال: والله ما أنا إلا صادق..

وأخرج الرجل حلة جميل فلما رأتها بثينة صاحت بأعلى صوتها وصكت وجهها.. واجتمع نساء الحي يبكين معها ويندبنه حتى صعقت.. فمكثت مغشيًا عليها ساعة.. ثم قامت وهي تقول:

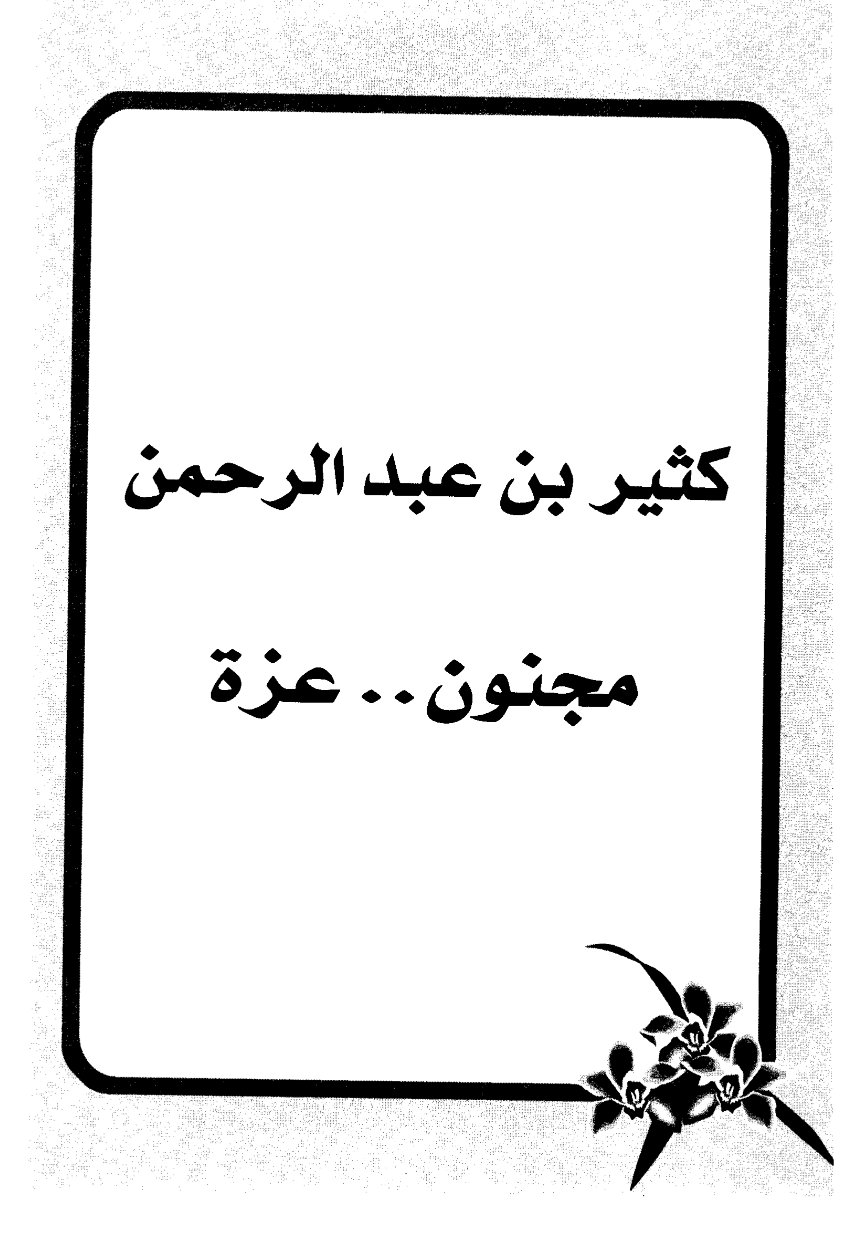
وإن سُلُوي عن جميل لَسَاعةٌ   من الدهر ما حانت ولا حان حينُها
سواء علينا يا جميل بن معمر   إذا مت بأساء الحياة.. ولينها

فلم يُرَ يوم كان أكثر بكاء منه.

وهكذا تغلق الصفحة الأخيرة في هذه المأساة.. عاشقان كتب عليهما قدرهما أن يعيشا على وجدٍ ومرارة وشوق جارف.. ويموت العاشق بعيدًا عن وطنه.. وتحيا المعشوقة في كمد وحزن ووحشة.. تجتر ذكرياتها القديمة حتى طوقتها رمال عذرة بعد موت حبيبها بقليل.. ليلتقيا في جنة العاشقين المجانين التي لا تعرف الفراق مهما بعدت بينهما المسافة.







كثير بن عبد الرحمن

مجنون.. عزة

خليليَّ هذا ربع عزة فاعقلا
قَلُوصَيكما ثم ابكيا حيث حلَّتِ
وما كنت أدرى قبل عزة ما البكا
ولا موجعات القلب حتى تولتِ

كثير

(١)

عجيب أمر هذا الشاعر العاشق.. كثير بن عبد الرحمن بن أبى جمعة الخزاعى.. فهو يختلف عن أصدقائه الشعراء العشاق.. بولائه السياسى المتعصب للشيعة.

وكان كثير ومعه الكميت يتقدمان شعراء الشيعة.. فكثير كان يلتزم عقيدة الكيسانية بكل ما تميزت به من تطرف وإيغال فى العقيدة الشيعية.. أما الكميت فكان ينحاز إلى عقيدة الزيدية بكل أصولها المذهبية.

ولقد لعب كثير دورًا خطيرًا فى جانب العقيدة الشيعية.. حتى إن كثيرًا من مؤرخى الأدب اتهمه بأنه كان يعانى أحد الأمراض العصابية الناتجة عن انعدام التكامل فى شخصيته فلجأ إلى التعصب والاختلاف حتى يرقى إلى مستوى الشهرة.. ويسد بعضًا من نواحى النقص الشخصية التى مُنِى بها منذ صغره.

فقد وصفه معاصروه بأنه كان دميمًا قصيرًا، حتى لقد ذكر بعض الرواة أنه رآه يطوف بالكعبة وأنه لا يزيد على ثلاثة أشبار.. ومن ثم كان يلقى سخرية الناس.




ويذكر أبو الفرج فى الأغانى أنه كان إذا دخل على عبد العزيز ابن مروان قال له: طأطئ رأسك لا يصيبك السقف.. سخرية منه وتهكمًا بقصره.

وكان يواجه سخرية الناس بالتعالى والترفع.. وبقوله:

وإن أك قصدًا فى الرجال فإننى   إذا حل أمر ساحتى لطويلُ

وكان ابن أبى عبيدة يملى شعر كثير بثلاثين دينارًا.. وسئل عمه مصعب: من أشعر الناس؟ قال: كثير بن أبى جمعة. وقال: هو أشعر من جرير والفرزدق والراعى وعامتهم (يعنى الشعراء).. ولم يدرك أحد فى مديح الملوك ما أدرك كثير.

ويضعه ابن سلام فى الشعراء الفحول.. وهو لديه شاعر أهل الحجاز.

وكان كثير يوغل فى تشيعه حتى إنه كان يزعم أن محمد بن الحنفية لم يمت.. وكان يزعم أن الأرواح تتناسخ ويحتج بقوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ ويقول: ألا ترى أنه حوله من صورة إلى صورة.

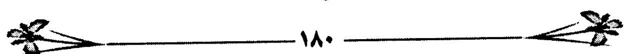
ويذكر أنه كان يدخل على عمة له فتكرمه وتطرح له وسادة يجلس عليها، فقال لها يومًا: لا والله لا تعرفيننى ولا تكرميننى حقّ كرامتى.

فقالت: بلى والله إنى أعرفك.

فقال: فمن أنا إذن؟

قالت: ابن فلان وابن فلانة.. وجعلت تمدح أباه وأمه.. فقال:

– قد عرفت أنك لا تعرفيننى.



قالت: فمن أنت إذن؟

قال: أنا يونس بن مَتَّى..

وكان يرى أن ابن الحنفية هو المهدى المنتظر وكان يتباهى بصلته به.. وسؤاله عنه ويقول:

أقر الله عينى إذ دعانى	**أمين الله يلطف فى السؤال**
وأثنى فى هواى على خيرا	**ويسأل عن بنى وكيف حالى**
هو المهدى خبَّرَناه كعب	**أخو الأحبار فى الحقب الخوالى**

كان كثير عاقًا لأبيه.. وكان أبوه قد أصابته قرحة فى إصبع من أصابع يده، فقال له كثير: أتدرى لم أصابتك هذه القرحة؟ قال: لا أدرى. قال: مما ترفعها إلى الله فى يمين كاذبة.

ومرة قال عبد الملك بن مروان لكثير: من أشعر الناس اليوم يا أبا صخر؟ قال: من يروى أمير المؤمنين شعره.. فقال عبد الملك: أما إنك لمنهم..

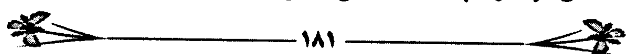
وكان عبد الملك كثير الرواية لشعر كثير.. وقد سأله يومًا كثير: كيف ترى شعرى يا أمير المؤمنين.. قال: أراه يسبق السحر.. ويغلب الشعر.

وإمعانًا فى المغالاة والتوهم.. يروى كثير حكايته عن بداية الشعر حين قال:

ما قلت الشعر حتى قُوِّلْتُه.

قيل له: وكيف ذلك؟

قال: بينما أنا يومًا نصف النهار.. أسير على بعير لى فى بقاع حمدان.. إذا راكب قد دنا منى حتى صار إلى جانبى.. فتأملته..



فإذا هو من النحاس وهو يجر نفسه فى الأرض جرًا.. فقال لى: قل الشعر.. وألقاه على..

قلت: من أنت؟ قال: أنا قرينك من الجن.. فقلت الشعر!

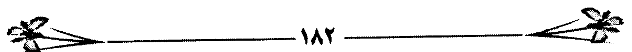
ويبدو أن بنى مروان كانوا يعلمون أن كثيرًا أحمق وأنه كان من أتْيَهِ الناس وأذهبهم بنفسه على كل أحد، ولهذا.. ولأنه كان حاقدًا على أعداء إمامه وأعداء الأمويين من بنى الزبير.. فإنهم لم يعبئوا بتشيع رجل أحمق ما دام ينيلهم مدحه.. وينال أعداءهم بهجائه.. وترى أنهم كانوا لا يجدون فى تشيعه ضررًا ولا يرتابون فيه ولا يعتقدون أن له خطرًا.

على هذا التصور كانت علاقة كثير بعبد الملك علاقة المصلحة المشتركة التى يجدها كل منهما فى الآخر والتى لا تضر بإيمان كثير بعقيدته.. ولا تضر عبد الملك نفسه..

وحسبنا من هذه المواقف والأخبار أن نجسد صورة كثير فى مجتمع متناقض.. يظهر أفراده غير ما يبطنون.. وتقوم العلاقات فيه على أساليب ومصالح لا تخضع إلى منطق صادق.. وإنما يسوقها منطق العصر والصراعات والصوت العالى والشهرة الزائفة.

وكأننا بكثير بن عبد الرحمن وقد لاطمته أمواج البحر العاتية فى الساحة السياسية بحثًا عن أمر آخر يمكن أن يخلده – صادقًا – على مدى التاريخ.. بعيدًا عن المديح والهجاء والخوض فى المتاهات الفكرية التى تزج به – غصبًا – إلى أتون السياسة.

فكانت علاقته بعزة.. عاشقًا.. مثاليًا.. مجنونًا.



(٢)

من العجيب أيضًا أن يلتصق اسم عزة باسم كثير.. وكأن العشق – يا مولاى – سيد المواقف.. وسيد الأوجاع أيضًا..
لا يكاد يذكر كثير حتى يقترن اسمه باسم عزة.

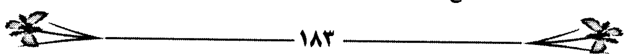
ولا يكاد يذكر العشاق العذريون المجانين.. حتى يذكر كثير فى سياقهم وفى مقدمتهم.. غافلين تشيّعه.. ومدائحه.. ومواقفه.
ولعل علماء النفس المعاصرين حين يدرسون شخصيته يتأكدون من هذا التحول الذى طغى على محاولاته الأولى لمواجهة سخرية الناس من نقائصه.

والآن.. أكان كثير حقًا يقصد أو يعى عشقه بعزة حتى يحقق لنفسه مكانة مرموقة على المستوى الشعرى والاجتماعى؟
إن كثيرًا من المؤرخين اتهموه بعدم الصدق فى عاطفته.. ورووا عن ذلك ما يؤيد ويدلل على ذلك.

وما يعنينا الآن أن نروى سيرة عشقه.. ثم نترك الحكم لحاستنا الصادقة تحكم عليه بالصدق أو النفاق.
وكما تبدأ قصص العشق المجنونة بموقف ما.. كانت بداية قصة كثير وعزة.

فقد مر كثير ذات يوم بنسوة من بنى ضمرة ومعه قطيع غنم.. فاندهشت النسوة.. وأردن أن يسألن كثيرًا شيئًا.. فأرسلن إليه عزة – وهى بعد صبية صغيرة – فأسرعت إليه تعبث الريح بأثوابها.. وابتدرته وهى تلهث:

– تقول لك النسوة بعنا كبشًا من هذه الغنم.. وسوف نؤدى لك ثمنه حينما ترجع مرة أخرى.

فأعجب كثير برقة عزة.. وأعطاها الكبش.. ووقعت هى من قلبه موقعًا عظيمًا.

فلما ذهب.. وعاد مرة أخرى.. جاءت واحدة من النسوة بثمن الكبش فقال لها:

– أين الصبية التى أخذت منى الكبش؟

قالت: وما تصنع بها؟.. هذه دراهمك ثمنًا لكبشك!

فقال: لا آخذ دراهمى إلا ممن أخذت منى كبشى.

وانصرف عن المرأة وهو يقول:

قضى كل ذى دين فوفَّى غريمهُ   وعزة ممطولٌ معنًّى غريمها

وهنا اجتمعت النسوة وقلن له: أبيت إلا عزة؟

قال: نعم.

فأبرزنها له وهى كارهة.

ثم أحبته عزة بعد ذلك أشد من حبه إياها.

أما عزة فهى بنت حُمَيْل بن وقاص بن حبيب بن غفار – والعزة (لغويًّا) هى بنت الظبية – وكنيتها أم عمرو.. وكان يطلق عليها أيضًا الحاجبية نسبة إلى جدها الأعلى.

تلك كانت الورقة الأولى فى قصة كثير العاشق.. فهل كانت عزة تستحق هذا العشق؟.. وهل كان كثير فى عين عزة هذا المعشوق المتفرد؟

ويحلو للقدماء أن يقارنوا بين كثير وجميل فى عشقهما.. فبعض منهم يقول إن جميلاً كان أصدق وأخلص وأجن.. وإن كثيرًا كان يتقول ولم يكن عاشقًا بل شغلته حياته ومواقفه عن ذلك.

وهذه حكاية ترويها قسيمة الأسلمية وكنيتها أم البنين.. قالت:

أقبلت علينا عزة فى جماعة من قومها.. واجتمعت فى لقائها جماعة من نساء الحَضَر أنا فيهن.

فجئناها.. فرأيناها امرأة حلوة بيضاء نظيفة.. فتضاءلنا لها.

وكانت تصحبها نسوة كلهن لها عليهن فضل من الجمال والخلق.. إلى أن تحدثت عزة ساعة فإذا هى أبرع الناس وأحلاهم حديثًا.. فما فارقناها إلا ولها علينا الفضل فى أعيننا.. وما نرى فى الدنيا امرأة تفوقها جمالاً.. وحسنًا .. وحلاوة.

وهذه شهادة تجىء من امرأة.. وليست من رجل.. وحينما تصف امرأةٌ امرأةً أخرى بهذا الوصف.. فهى صادقة.. ليس فيها مصانعة أو تزييف أو مبالغة.

وقد مر بنا ما كان عليه كثير من القبح والقصر والدمامة.. ولولا أنه كان شاعرًا أو عاشقًا.. ما ذكره التاريخ.. وما أفسح له فى ذاكرته.

(٣)

وكما تحدث فى قصص العشق.. يشبِّب كثير بعزة.. ويذيع ذلك بين العرب ويحال بينه وبينها.. ويتزوجها رجل آخر.

لكنَّ كثيرًا كان يتبعها كظلها.. ولم يتوقف عن قول الشعر فيها رغم زواجها ورحيلها الدائم مع زوجها.

ويوما أدخلت عزة على عاتكة بنت يزيد فقالت لها: أرأيت قول كثير:



قضى كل ذى دين فوفَّى غريمه   وعـزة ممطول معـنًّى غـريمُها

ما هذا الذى ذكره يا عزة؟

قالت: قبلة وعدته إياها.

قالت: أنجزيها وعلىّ إثمها.

ويهدِّد قوم عزة كثيرًا.. ويقبل عليه بعض من أصدقائه لعله يثوب إلى رشده تاركًا حب عزة فلا يزيد على قوله:

يزهدنى فى حب عزة معشر   قلـوبـهـم فيـهـا مخالـفة قلبى

فقلت دعوا قلبى وما اختار وارتضى   فبالقلب لا بالعين يبصر ذو اللب

وما تبصر العينان فى موضع الهوى   ولا تسمع الأذنان إلا من القلب

ولأن العاشق دائمًا يهمه أن يكون لمعشوقته ملاذًا وحماية وخلاصًا لها فى أى مأزق فقد حاول كثير أن يفعل ذلك مرارًا رغبة منه فى جذب عاطفة عزة إليه أكثر.

وقد كان لكثير غلام تاجر.. وحدث أنه باع عزة بعض سلعه.. لكنها ماطلته فى سداد ما عليها.. وهو لا يعرف ما بينها وبين سيده كثير.

فقال الغلام يومًا لها: لأنت والله كما قال سيدى:

قضى كل ذى دين فوفى غريمه   وعـزة ممطول مُعَنًّى غـريمها

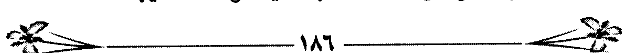
فانصرفت عزة عن الغلام فى خجل شديد.

وهنا قالت امرأة للغلام: ألا تعرف يا أحمق من تكون عزة؟!

قال: لا والله.

ثم صحا الغلام من غفلته وقال:

– من أجل مولاى لا آخذ منها شيئًا ولا أقتضيها.



ورجع إلى كثير يخبره بالخبر.. فماذا فعل معه كثير؟.. وماذا يفعل من أجل عزة؟.. لقد اعتق الغلام ووهب له مالاً كثيرًا.

ولم يكن يذوق النوم حتى يعرف شيئًا عن عزة.. أو يتناقل خبرًا عنها.. ولا يهمه فى ذلك أنها امرأة متزوجة.

ومرة عرف كثير أن عزة قد نزلت فى جماعة من قومها فى ناحية.. وكان له فى هذه الناحية صديق قديم.. فأقبل كثير على صديقه وقال له:

– أريد أن أكون عندك اليوم.. لأكون قريبًا من عزة.

واستجاب صديقه.. وأقام فى منزله حتى كان العشاء.. ثم أرسل صديقه إلى عزة وأعطاه خاتمه وقال:

– إذا سلمت.. فستخرج إليك جارية.. فادفع إليها بخاتمى هذا وأعلمها مكانى.

وينطلق الصديق إلى مكان عزة ويسلم.. وتخرج إليه الجارية ويدفع إليها خاتم كثير.

فقالت: أين الموعد؟

قال: صخرات أبى عبيد.. الليلة.

فواعدته هناك.. ورجع الصديق وأخبر كثيرًا بالموعد.

فلما أمسى قال كثير لصديقه:

– انهض بنا.

فنهضا وجلسا هناك عند الصخرات يتحدثان حتى أقبلت عزة.. وتحدثت مع كثير.. وأراد الصديق أن يقوم ليخلو لهما جو العاطفة.. لكن كثيرًا قال له:



– إلى أين يا صديقى تذهب؟

قال: أخليكما ساعة لعلكما تتحدثان ببعض ما تكتمان.

قال كثير: بل اجلس.. **فوالله** ما كان بيننا شىء قط..

فجلس الصديق وهما يتحدثان حتى السحر.. ثم قامت عزة وانصرفا..

ذلك ما يؤكد عذرية العاطفة بين كثير وعزة.. ذلك الحب الذى يملك على العاشق قلبه ووجدانه وعقله وشعره جميعًا دون أن يدنسه بشىء آخر.

ويحاول الكثيرون حول كثير أن يثنوه عن حب عزة.. ومنهم عائشة بنت طلحة التميمية حين أرادت أن تختبر عشق كثير.. فقالت له:

– يا بن أبى جمعة.. ما الذى يدعوك إلى ما تقول من الشعر فى عزة.. وليست على ما تصف من الحسن والجمال.. لو شئت صرفت ذلك إلى غيرها ممن هن أولى به منها – أنا أو مثلى – فأنا أشرف وأوصل من عزة.

فقال:

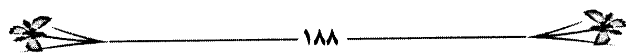
إذا ما أرادت خُلَّة أن تزيلنا   أبينا وقلنا: الحاجبية أولُ

سنوليك عرفا إن أردت وصالنا   ونحن لتلك الحاجبية أوصلُ

لها مهل لا يستطاع دِراكُه   وسابقة فى الحب ما تتحولُ

فقالت عائشة: **والله** لقد سميتنى لك خلة.. وما أنا لك خلة.. وعرضت على وصلك وما أريد ذلك وإن أردت.. ألا قل كما قال جميل:

ويقلن إنك قد رضيت بباطل   منها فهل لك فى اعتزال الباطل



وتشيع أخبار كثير وعزة بين العرب.. وكان عبد الملك بن مروان معجبًا بكثير وشعره وأخباره..

وليلة كان عبد الملك يتسلى فى مجلسه.. وكثير حاضر.. فسأله عن أعجب خبر له مع عزة.. فقال كثير:

حججت سنة من السنين.. وحج زوج عزة بها.. ولم يعلم أحد منا بصاحبه.. فلما كنا فى بعض الطريق أمرها زوجها بشراء سمن تصلح به طعامًا لأهل رفقته.. فخرجت عزة تدور بالخيام خيمة خيمة لعلها تجد السمن.. حتى دخلت خيمتى.. وهى لا تعلم أنها خيمتى.. وكنت أبرى سهمًا.. فلما رأيتها جعلت أبرى لحمى وأنظر إليها حتى بريت ذراعى.. وأنا لا أعلم به والدم يجرى.. فلما تبينت عزة ذلك.. أقبلت على وأمسكت يدى.. وجعلت تمسح الدم بثوبها.. وكان لدى وعاء سمن.. فحلفت أن تأخذه.. فأخذته.

وتعود عزة إلى زوجها بالسمن والدم فوق ثوبها.. فسألها عن الخبر فأنكرت وكتمت الحقيقة.. حتى حلف عليها.. فأخبرته.. فأخذ يضربها.. وأقسم أن تشتمنى فى وجهى.

فأتتنى مع زوجها.. وأخذت تسبنى وهى تبكى.. فأنشدت ساعتها:

خليلى هذا ربع عزة فاعقلا ... قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلتِ..

تمنيتها حتى إذا ما رأيتها ... رأيت المنايا شرعًا قد أظلتِ

كأنى أنادى صخرة حين أعرضت ... من الصم لو تمشى بها العصم زلتِ

يكلفها الخنزير شتمى وما بها ... هوانى.. ولكن للمليك استذلَّتِ

هنيئًا مريئًا - غير داء مخامر ... لعزة من أعراضنا ما استحلتِ

وهى قصيدة طويلة من عيون الشعر العربى يودعها حرقته وجنونه وعشقه الملتهب.

وتسوء حال كثير.. فهو لا يستطيع أن يرى عزة حين يشتاق إليها.. وقد ضيق عليها زوجها.. وهددها إذا هى حاولت أن ترى كثيرًا.

ويعتزم الرحيل إلى مصر مع صديق له يقال له سائب.. فمر الصديقان على ماء قريب من خباء عزة.. فسلما.. فقالت عزة: وعليك السلام يا سائب.

ثم أقبلت عزة على كثير فقالت:

– ويحك.. ألا تتقى الله؟.. أرأيت قولك:

بآية ما أتيتك أم عمرو فقمت لحاجتى والبيت خالى

أخلوت معك فى بيت واحد أو فى غير بيت قط؟!

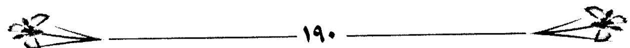
قال كثير: لم أقله ولكننى قلت:

فأقسم لو أتيت البحر يومًا لأشرب ما سقتنى من بلالِ
وأقسم أن حبك أم عمرو لداء عند منقطع السعالِ

قالت عزة: أما هذا فنعم.

ويسافر كثير إلى مصر.. ثم يعود مرة أخرى.. ويلتقى بعزة ويقول لها: السلام عليك يا عزة.. فترد: وعليك السلام يا جمل.. فينشد كثير:

حيتك عزة بعد الهجر فانصرفت فحىّ ويحك من حياك يا جملُ
لو كنت حييتها ما زلت ذا مقة عندى وما مسَّك الإدلاج والعملُ
ليت التحية كانت لى فأشكرها مكان يا جملٌ حييت يا جملُ



وتسوء حال كثير ويصيبه الضجر والنحول ومرض مرضًا شديدًا فبكى بعض أهله: فقال كثير:

– لا تبك.. فكأنك بى بعد أربعين ليلة تسمع صوت نعلى من تلك الشعبة راجعًا إليكم.

لكن القدر لم يمهله.. فمات فى سنة ١٠٥ هـ ومات فى نفس اليوم عكرمة بن عباس.. فاجتمعت قريش فى جنازة كثير.. ولم يوجد لعكرمة من يحمله.

وقال الناس: مات اليوم أفقه الناس وأشعر الناس..

وغلب النساء على جنازة كثير يبكينه ويذكرن عزة فى ندبتهن له.

هذه هى قصة كثير وعزة.. فماذا يمكن أن نقول عنها؟

لقد قصدنا هنا أن نسوق الأخبار كما ترويها المصادر الموثوقة.. ونحينا جانبًا ما جاء من الأخبار نتيجة الأحقاد.. أو الغضب أو التحزُّب حتى لا تشوه صورة العاشق المجنون.. وهى أخبار نحسبها مدسوسة عليه وعلى عزة.. فمن ذا الذى يصدق كذب العاشق وهو يحرق نفسه فى أتون الشعر.. ويبرى ذراعه فى لقاء محبوبته.. ويفاخر بعشقه غير عابئ بالمصير؟!

وحتى لو طبقنا على سلوك كثير.. ما يقول به علماء النفس.. فمن الصعب أن نصدق أن عقدة ما يمكن أن تلازم الإنسان طوال عمره.. ولابد أنه فى غمار الحياة.. يمكنه أن يحيل هذه العقدة أو هذه النقيصة إلى إضافة كبيرة فى شخصيته.

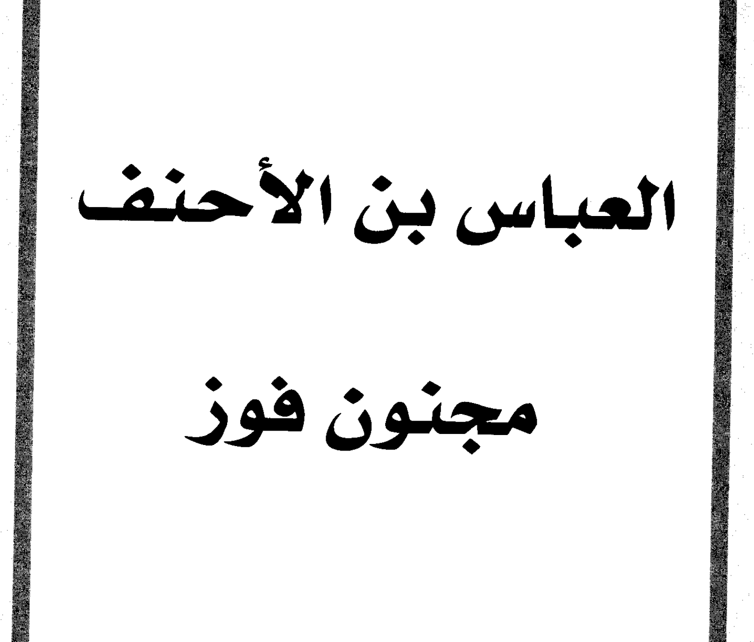
أما كان الأيسر على كثير – أمام دمامته وقصره – أن يستسلم إلى هذه النقيصة.. وأحسب أنه قد وفق إلى أن تنسى

الـنـاس ذلك عـنـه حـيـنـمـا بـرَّز فـى الشعر والسيـاسـة والـعشق جميعًا..

وكثير قد أنساه عشقه تمامًا ما كان يحس به من نقص.. ويكفيه وَلَهُ عزة به.. واجتماع النساء على نعشه يوم جنازته.. ورواية ابن مروان لأشعاره.. وأخباره.. ألا يكتب ذلك كله له خلودًا وعشقًا وجنونًا؟

إننـا نـنـحـاز إلـى وضـع كثير فـي قـائمـة الـعشـاق الأصـلاء.. والشعراء الفحول الذين تركوا لنا تراثًا عظيمًا لا يموت أبدًا.





العباس بن الأحنف

مجنون فوز

يــا غــريب الــدار عــن وطـــنـــه
مــفــردًا يــبــكــى عــلــى شــجــنــه
كــلــمــا جــدً الــبــكــاء بــه..
دبت الأســـقـــام فـــى بـــدنـــه

العباس

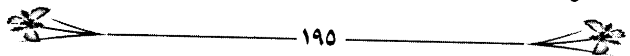
ربما غلب الحب العذرى على شعراء العصر الأموى.. بل مثل هذا الاتجاه لونًا خاصًا يضاف إلى تلك الساحة التى كانت تموج بالصراع السياسى العنيف.

ثم حينما نتصفح أوراق العصر العباسى.. فنحن أمام شعراء الغزل الذين تغلب عليهم صفة المجون من أمثال أبى نواس.. وحماد عجرد.. ومسلم بن الوليد وغيرهم.. حتى أننا لو أمعنا النظر قليلاً لأدركنا ندرة الألوان العاطفية الصادقة التى يمكن أن تكون امتدادًا لغزليات العصر الأموى.

ومن هؤلاء الشعراء النادرين الذين صدقوا فى عواطفهم وأشعارهم.. وتمثلوا تلك الألوان التى تقترب من عذرية الأمويين.. العباس بن الأحنف.. وعلى بن الجهم.. وابن الرومى.. وأبو العتاهية.

لكن العباس بن الأحنف يجىء فى مقدمة هؤلاء حيث يمثل بطلاً لقصة تماثل قصص المجانين مع حبيبته فوز.

وشاعرنا العباس بن الأحنف من بنى حنيفة.. نشأ فى نعمة وثراء جعلاه ينصرف عن شعر المديح الذى كان يجذب إليه عامة الشعراء طلبًا للنوال والعطاء.



وكـان يـتـعـاطـى الـفـتـوة عـلـى ستر وعـفـة، ولـه مـع ذلك كرم ومحاسن أخلاق وفضل من نفسه.. وكان جوادًا لا يحبس ما يملك.

ويـقـول صـاحب الأغـانى: كـان الـعـبـاس شـاعـرًا غـزلاً ظـريـفًـا مطبوعًا.

ويشبهه البعض فى عصره بعمر بن أبى ربيعة فى عصره.. وكان شعره كله فى الغزل والوصف.

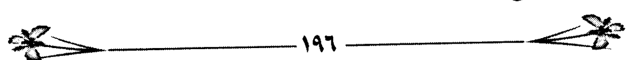
ويـقـدمـه جـمـاعـة مـن رواة الشعر بـقـولـهـم: كـان الـعـبـاس مـن الظرفاء ولم يكن من الخلفاء.. وكان غزلاً ولم يكن فاسقًا.. وكان ظاهر النعمة ملوكى المذهب شديد الترف.. وكان قصده الغزل وشغله النسيب.. ولم يكن هجاء ولا مداحًا.

وقد فتح اشتهاره بـالـغزل بـاب قصر الرشيد حتى أصبح من ندمائه يصطحبه فى غزواته.

ومن أجمل ما يروون عنه أنه خرج مع الرشيد ذات مرة إلى خراسان.. وكان الرشيد قد وعده أنه لن يغيب عن أهله فى بغداد.. لكن الغياب طال.. فاشتد به الشوق إلى أهله.. واحتال هو بأبيات تصل إلى سمع الرشيد لعله يسمح له بالعودة.

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا	**ثم القُفول.. فقد جئنا خراسانا**
متى يكون الذى أرجو وآملُه؟	**أما الذى كنت أخشاه فقد كانا**
ما أقدر الله أن يدنى على شَحَطٍ	**سكان دجلة من سكان جيحانا**
يا ليت من نتمنى عند خلوتنا	**إذا خـلا خـلـوةً يـومًـا تمنـانـا**

وتصل الأبيات إلى سمع الرشيد.. فيتأثر بها ويأذن للعباس بالعودة إلى بغداد.



ولندخل إلى عالم العشق لدى العباس.

وتبدأ القصة حينما توثقت صلة الشاعر بمحمد بن منصور بن زياد الملقب بفتى العسكر.

وفى أحد لقاءاته به.. رأى عنده جارية جميلة تسمى فوْز.. فوقعت فى قلبه.. وأخذ يكثر من زياراته.. حتى عرف أمره.

لكن فوزًا كانت تصده.. وهو يزداد لها حبًا وهيامًا..

ويحسّ حرمانًا قاتلاً.. وقلقًا مشردًا فأخذ يبثها قلقه وأساه:

قد كنت أرجو وصلكم فظلِلتُ منقطع الرجاءِ

أنت التى وكّلت عينى.. بالسهاد وبالبكاءِ

إن الهوى لو كان ينفذُ فيه حكمى أو قضائى

لطلبته وجمعْته من كل أرض.. أو سماءِ

فقسمته بينى وبين حبيبِ نفسى بالسواءِ

فنعيشُ ما عشنا على محضِ المودةِ والصفاءِ

حتى إذا متنا جميعًا والأمور إلى فناءِ

مات الهوى من بعدنا أو عاش فى أهل الوفاءِ

وتبدأ فوز لتكون وحيدة هواه.. لا قبلها ولا بعدها حبيبة.. ويتمادى فى عشقه لها.. وهى تتمادى فى صده وهجره.. ويبكى العباس:

أما والذى أبلى المحب وزادنى ... بلاءً لقد أسرفتِ فى الظلم والهجرِ

فإن كان حقا ما زعمت أتيته ... إليك فقام النائحات على قبرى

وإن كان عدوانًا علىَّ وباطلاً ... فلا مِت حتى تسهرى الليل من ذكرى

وتصل فوز هذه الأبيات فيرق قلبها وتبعث إليه:



– أظننا قد ظلمناك يا أبا الفضل.. فاستجيبت دعوتك فينا.. مازلت البارحة ساهرة ذاكرة لك.

ويعلم أخو فوز بعشق العباس.. ويثور من داخله على هذه العاطفة.. فيرسل إليه يتهدده.. ويقسم ليواجهنه.

ولا يثنى العباس هذا التهديد.. بل عزم على أن يكون شهيد حبه الذى أرداه:

أيام يرصدنى أخوك بسيفه والسيف يمنعنى وتمنعه يدى
وأرى الكواعب يغتنمن رسائلى لولاكِ كان لبعضهن تؤدى
إنى لأصبح فى جهاد منكمو كموحد أرداه دين الملحدِ
فلئن هلكت لتصبحن أثيمة ولأرزقنَّ شهادة المتشهدِ

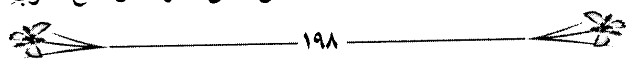
وكان دائم التراسل مع فوز.. يبعث إليها بما يريد من رسائل أو برغبة فى اللقاء.

يا فوز هل لك أن تعودى للذى كنا عليه منذ نحن صغارُ؟
فلقد خصصتك بالهوى وصرفتُه عمَّن يحدّثُ عنهم فيغارُ
هل تذكرين بدار بكرة لونها ولنا بذاك مخافة وحذارُ؟

ولنتوقف لنمعن النظر قليلاً.. ألا يذكرنا هذا بقيس بن الملوح وصاحبته ليلى؟ وتستمر القصة.. وتمعن فى التعقيد.

لقد انتقلت فوز من ملك محمد بن منصور إلى ملك بعض أمراء بنى العباس وحج بها الأمير.. وبعدت فوز عن نظر العباس.. فمضى يبكيها مصورًا شوقه وهيامه الحارق:

أزينَ نساء العالمين أجيبى دعاء مشوق بالعراق غريبِ
كتبت كتابى ما أقيم حروفه لشدة إعوالى وطول نحيبى
أخُطُّ وأمحو ما أخُطُّ بعبرة تسح على القرطاس سح ذَنوبِ



أيا فوز لو أبصرتنى ما عرفتنى ... لطول نحولى بعدكم.. وشحوبى

وأنت من الدنيا نصيبى فإن أمتْ ... فليتكِ من حور الجنانِ نصيبى

أرى البين يشكوه المحبون كلهم ... فيارب قرِّب دار كل حبيبِ

وتعود فوز من رحلة الحج.. ليعود إليه عذابه بها.. ويظل يذكرها ويهتف باسمها وحبه لها:

أميرتى لا تغفرى ذنبى ... فإن ذنبى شدة الحبِّ

حدثت قلبى دائمًا عنكمو ... حتى قد استحييت من قلبى

ويشعر العباس بالعصيان الذى يصدر عن فوز.. لكنه عصيان محبب:

أستغفر الله إلا من مودتكم ... فإنها حسناتى يوم ألقاهُ

فإن زعمتِ بأن الحب معصيةٌ ... فالحب أحسن ما يُعصى به الله

وقد كان لهذا العصيان وهذا الصد أثر شديد على مزاجه.. فكان عنيفًا فى سلوكه وتعامله مع الغير.

ويروى عنه أنه ضرب غلامًا له وحلف أن يبيعه.. فمضى الغلام إلى فوز فاستشفع بها عليه.. فكتبت إليه فيه.. فقال:

يا من أتانا بالشفاعات ... من عند من فيه لجاجاتى

إن كنتَ مولاكَ فإن التى ... قد شفعت فيك لمولاتى

إرسالها فيك إلينا لنا ... كرامة فوق الكراماتِ

ورضى عنه.. ووصله.. وأعتقه.

وكان يجلس إلى أصدقائه فيبدو عليه الأسى والكآبة والضجر.. والنحول.. وبلغ به ذلك مبلغًا عظيمًا فسألوه: ما دهاك؟



فقال: لقيتنى فوز اليوم فقالت لى يا شيخ.. وما قالت ذلك إلا من ملل.. أو يأس.

فقالوا له: هون عليك إنها امرأة لا تثبت على حال.. وما أرادت إلا العبث بك والمزاح معك.

فقال: إنى والله قد قلت أقبح مما قالت.. ثم أنشد:

هَزئتْ إذ رأت كئيبًا معنًّى   أقصدته الخطوبُ فهو حزينُ

هزئتْ بى ونلتُ ما شئتُ منها   يا لقومى فأيُّنا المغبونُ

فقالوا له: لقد أنصفت نفسك والله.

وتقترب القصة من نهايتها.

لا أمل فى الفوز بفوز.. ولا أمل لديه من الحياة جميعًا.. وليكن شهيد العشق.. وشهيد الانتظار.. واليأس.

ويخرج إلى البيداء وقد نال منه النحول.. والضعف.. ومعه غلام مخلص.. فاستلقى تحت شجرة.. ورفع طرفه.. وهو لا يكاد يرفعه ضعفًا وسقمًا.. وأنشأ يقول آخر كلماته:

يا سقيم الجسم من مِحَنه   مفردًا يبكى على شجنِه

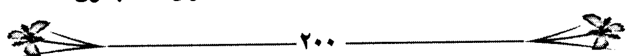
كلما جدَّ البكا به..   دبَّت الأسقامُ فى بدنِه

ثم أغمى عليه.. وأقبل طائر فوقف على الشجرة.. وجعل يغرد.. فسمع العباس تغريده وفتح عينيه مرة أخرى وقال:

ولقد زادَ الفؤادَ شجى   طائرٌ يبكى على فننِه

شفَّه ما شفَّنى فبكى   كُلُّنا يَبكى على سكنِه

ثم تنفس تنفسًا مديدًا فاضت فيه روحه.. لتنطوى صفحة طاهرة نقية من الغزل الذى يشبه الغزل العذرى.. المجنون.



ديك الجن

وجنون الندم





نـديم عـيـنـى بـعـدَكَ الـكـوكبُ
ولـوعـةٌ أنـاتُـهـا تُـلـهبُ

مـا امـتـنـع الـدمـع.. وإسـبـالُـه
عـلـىَّ لما امـتـنـع المطـلبُ

إن تـكـن الأيـامُ قـد أذنـبتْ
فـيك .. فـإن الـدمـع لا يـذنبُ

ديك الجن

(١)

هذه قصة جنون مختلفة!

فإن كان جنون الشعراء العذريين.. فى الانقطاع كاملاً إلى هذه العاطفة الرومانسية مع الحبيبة.. يعيشون بها.. ويموتون بها.. ويتحملون فى سبيلها معاناة تفوق طاقة البشر.

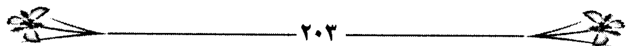
فإن ديك الجن هنا حطَّم كل هذه الملامح.. وأصابه جنون الغيرة والندم بعد ذلك.. فتفرد بصورة جنون لم تكن لدى أحد من الشعراء.

أما ديك الجن فهو أبو محمد عبد السلام بن رغبان.. وأما لقبه الذى غلب عليه فهو ديك الجن.. أحد شعراء الدولة العباسية.. عاش ومات فى مدينة حمص.. فعرف بديك الجن الحِمصى.

ولعلنا نتساءل عن أصل هذا اللقب الذى التصق بعبد السلام ابن رغبان.

والإجابة تأتى بأكثر من وجه.. فمن قائل إنه يدعى ديك الجن لأن عينيه خضراوان.

ومن قائل إنه كان يكثر من خروجه إلى البساتين ومعاقرته للخمر.. فسمى بذلك تشبهًا بدويبة توجد فى البساتين إذا ألقيت



فى خمر عتيق تظل فيها حتى تموت.. ومنهم من أجهد نفسه حتى وجد فى شعر ديك الجن هذا البيت:

دعانا أبو عمرٍ عميْرُ بنُ جعفرٍ على لحمِ ديكٍ دعوةً بعد موعِدِ

فألصق به اسم الديك.. وأتبعه بالجن!

وديك الجن شاعر مجيد من شعراء الدولة ا لعباسية.. وكان من ساكنى حمص وكان يتشيع تشيعًا حسنًا.. وله مراثٍ كثيرة فى الحسين بن على.

وهو أستاذ لأبى تمام.. ومعاصر لأبى نواس.. ودعبل الخزاعى.. وبشار.. والبحترى.

وكان ديك الجن جريئًا على الشعر.. مجددًا فى عصر يتمسك بالتقاليد الفنية ولا يعترف بغيرها.

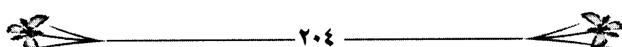
وكان متطرفًا فى كل شىء.. متطرفًا فى لهوه وخمره.. متطرفًا فى أشعاره.. وعلى الرغم من ضياع معظم شعره.. إلا أن ما وصلنا منه يكفى لنعرف منه قصته مع حبيبته، «ورد»، فماذا عن هذه القصة؟.. وكيف تختلف عن غيرها من قصص المجانين؟!

(٢)

كان لديك الجن ابن عم له يقال له: أبو الطيب.. وكان يحقد عليه ويبغضه.. ويروى أنه جاءه يومًا يقول له:

– يا بن عمى أرى أنك تنفق مالك فيما لا طائل منه.. ولو كنت مكانك لأمسكتُ يدى على ميراث أبى.. وأنميته.. وجعلته بعيدًا عن يد الأيام.

ويبتسم ديك الجن فى وجه ابن عمه قائلاً:



– لا تخش على يا أبا الطيب فأنا لا أخاف الفقر.. وهبْ أن أموالى نفدت ألا يكفينى شعرى:

ما الذنب إلا لجدّى حين ورَّثنى   علمًا.. ووُرِّثه من قبل ذاك أبى
فالحمد لله حمدًا لا نفاد له   ما المرء إلا بما يحوى من النشبِ

ويمضى أبو الطيب مغيظًا من إصرار ديك الجن على ما يفعل.. ويضمر فى نفسه شرًّا له.

وكما اعتدنا فى قصص العشق العربى.. يلتقى الحبيبان وكأن القدر يسوقهما إلى هذا اللقاء.

لقد كان ديك الجن يومًا يطوف بالسوق.. فوقعت عيناه على وجه صبيح.. ووجد لسانه يلهج قائلاً:

سقانى ثم قبلنى وأومى   بطرفِ سقمُه يشفى سقامى

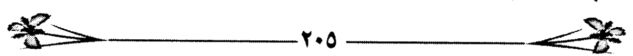
فمن تكون صاحبة هذا الوجه الصبيح؟

يقول عنها ديك الجن:

انظر إلى شمس القصور وبدْرها   وإلى خزاماها وبهجة زهرها
لم تبل عينك أبيضًا فى أسودٍ   جُمع الجمالُ.. كوجهها فى شعرها
ورديةُ الوجنات يختبر اسمها   من ريقها من لا يحيط بخبرها
وتمايلت فضحكتُ من أردافها   عجبًا.. ولكنى بكيتُ لخصرها
تسقيك كأس مُدامة من كفها   وردية ومدامةٍ من ثغرها

من هى إذن شمس القصور هذه.. وردية الوجنات؟

إن اسمها ورد.. جارية نصرانية من أهل حمص.. وقعت فى قلب ديك الجن وسلبت لبه وخياله وأشعاره.



ويعلم أبو الطيب بهذا الحب الذى رآه فرصة سانحة للنيل من ديك الجن.. فأقبل عليه يلومه على حبه لنصرانية.. وكيف ينوى الاقتران بها وهى ليست على دينه.

وكانت المفاجأة..

أجابه ديك الجن فى هدوء:

– ما رأيك يا بن عمى لو أن وردًا أجابتنى إلى دينى وأسلمت.. أيكفى هذا لكى يطمئن قلبك؟

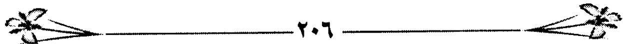
وأسقط فى يد أبى الطيب ويزداد حقدًا عليه.

ويدرك ديك الجن ما تنطوى عليه نفس أبى الطيب.. فكلما قال ديك الجن قصيدة جديدة.. وقعت فى قلب أبى الطيب كالسهم القاتل.. وكلما سمع خبرًا عن عاطفة ديك الجن وورد.. ازداد غيظًا.

ويجد ديك الجن نفسه يصور هذه الحالة:

يا عجبًا من أبى الخبيث ومن   خروجه فى النكائر الدثرة
يحمل رأسًا تنبو المعاول عن   صفحته والجلامدُ الوعرة
لو البغال الصلبُ ارتقت سندًا   فيه لمدت قوائمًا خدرة
يا كل من وكل طالعةٍ   نحس ويا كل ساعة عسرة
سبحان من يمسك السماء على الأر   ض.. وفيها أخلاقك القذرة

ويدفع هذا الموقف ديك الجن فيقترن بحبيبته ورد.. وتسلم ورد.. ويظلهما سقف واحد.. ويفد على ديك الجن أصدقاؤه ومحبوه ليهنئوه بهذا الزواج السعيد.

(٣)

يكاد شعر ديك الجن الذى وصلنا يجسد هذه العاطفة المجنونة بين ديك الجن وورد.. لقد ملكت عليه حياته ليل نهار:

قولى لطيفك ينثنى عن مضجعى.. عند المنامْ
عند الرقودْ.. عند الهجوعْ عند الهجودْ عند الوسنْ

فعسى أنام فتنطفى نارٌ تأجَّج فى العظامْ
فى الفؤادْ.. فى الضلوعْ.. فى الكبودْ.. فى البدنْ
جسدٌ تقلَّبه الأكفُّ على فراشٍ من سقامْ
من قتادْ .. من دموعْ .. من وقودْ .. من حزَنْ
أما أنا فلقد علمتِ. فهل لوصلك من دوامْ
من معاد.. من رجوع.. من وجود.. من ثمنْ

ويجد أبو الطيب نفسه فى موقف لا يحسد عليه.. فقد وفد إلى ديك الجن أهل حمص يهنئونه ويباركون هذا الزواج.

إن عليه أن يفعل هذا أيضا.. ولو كان هذا ضد رغبته.

ويذهب أبو الطيب.. ويهنئ ديك الجن وزوجته.. ويتظاهر بالحب والمودة.. ويتمنى لهما السعادة.

ويبدو أن ديك الجن كان قد أسرف على نفسه.. وأنفق ماله على استقبال ضيوفه وأصدقائه يشرب معهم حتى الصباح.. تغرقه السعادة والفرحة.. حتى أعسر واختلت حاله.

وأخذ يفكر فى مصيره.. ماذا يفعل.. وكيف يحصل على المال الذى يكفيه هو وحبيبته والذى يعينه على عوادى الزمن.

إنه لا يريد أن يشمت فيه أحد خاصة ابن عمه أبو الطيب.



وتقدم له ورد عقدها الذهبى الثمين لكى يبيعه وينفق من ثمنه.. لكنه يرفض ذلك ويفضل أن يرحل إلى سَلَمْيَة قاصدًا أحمد بن على الهاشمى.

وتود ورد أن تصحبه فى رحلته.. لكنه وجدها أمرًا شديد الوطء على صديقه أن يستضيف اثنين.. وفضل أن يذهب وحده.

ويوم الرحيل قبل ديك الجن حبيبته قائلاً:

– لن أغيب طويلاً عنك يا حبة القلب.. وإذا أعوزتك الحاجة فلديك ابن عمى أبو الطيب وقد أتانا معتذرًا.

– صحبتك السلامة يا ديك الجن.

لقد كنت شأن الشعراء الأصفياء القلب.. تعفو وتصفح وتنسى كل إساءة.. وتوصى امرأتك بأن تتصل بابن عمك فقد أتاك مهنئًا معتذرًا.. وجمع بينكما الطعام والشراب.. فلا مكان إذن للغدر أو الخيانة.

ويعلم أبو الطيب برحيل ديك الجن.

– هذه فرصتك يا أبا الطيب.. إنه يحدث نفسه فى شماتة:

– هذا ديك الجن قد أتلف ماله الذى ورثه عن أبيه.. وكان يمكننى أن أطالبه بنصيبى فيه.

وهو شاعر طبق بشعره الآفاق.. وروته الرواة.. وحاز من الشهرة ما لم أنله أنا طوال حياتى.. بل زاد على ذلك أن هجانى بقصيدة رواها عنه حسادى وأعدائى.. وأصبحت مضغة فى أفواههم لوقت طويل.



وهذه الحسناء التى فاز بها ولم يكن يستحقها.. لقد حاولت أن أبعده عنها لعلنى أنجح فى الوصول إليها.. لكنه تحدانى واقترن بها.. وأصبحت هى أيضًا حديث الناس من شعر ديك الجن.

والآن.. لقد خلت الساحة لك يا أبا الطيب.

وتجسد الشيطان فى داخل أبى الطيب ليرسم مؤامرة دقيقة الخيوط.

لقد استدعى أبو الطيب غلامه بكر.. وأمره أن يذهب إلى ورد ببعض الهدايا ويخبرها بأن سيده يريد أن يذهب إليها فى الليل.

وتأبى ورد هدايا أبى الطيب وترفض قبول الزيارة لها فى الليل.

ويخفق أبو الطيب فى أول اختبار.. ليفكر فى شىء آخر.

ماذا ينوى أن يفعل أبو الطيب؟!

لقد أشاع أن وردًا تخون ديك الجن مع غلامه بكر.

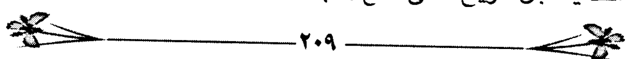
واجتهد فى إذاعة هذا الخبر فى كل مكان.. ويظل الخبر يتناقل.. ويتناقل.. حتى يصل خارج حمص إلى سلمية.. وإلى أسماع أحمد الهاشمى.. الذى يخبر به ديك الجن فى أثناء إقامته عنده..

ويثور ديك الجن.. ويعزم على العودة والثأر من زوجته الخائنة.

(٤)

ويعلم أبو الطيب بعودة ديك الجن.. لم يبق غير يومين.. ويصل ديك الجن إلى حمص وعلى أبى الطيب أن يقيم الدليل على خيانة ورد.. فى حضور ديك الجن.

ويعود ديك الجن ويستقبله الناس على مشارف حمص يؤكدون له سوء خلق زوجته وفسادها.. وهو لا يرد عليهم.. بل أخذ يسابق الريح حتى دفع باب بيته.



وكانت لحظات قاسية سريعة.. جرت على هذا النحو.

إن وردًا تستقبل زوجها العائد بلهفة مجنونة.. لكنه ينكر منها هذه اللهفة. وتندهش ورد لسلوك زوجها.. فيصرخ فيها:

– ألا تعلمين ماذا بى يا خائنة؟.. ومع من؟!.. مع غلام أبى الطيب.. هل هانت عليك نفسك وهنتُ أنا عليك إلى هذا الحد؟

ويتدخل غلامه سعيد لعلَّه ينقذ سيدته من هذه الوشاية.. فلا يسمع له ديك الجن.

وتقسم له ورد أن شيئًا من هذا لم يحدث.. وأنها وفية له.. ويسمع طرقًا على الباب.

وتسود لحظة صمت.. ينظر ديك الجن فيها إلى ورد فى ترقب.. ويأمرها أن تسأل: من الطارق؟

وفى رعب شديد تسأل ورد: من الطارق؟

كان غلام أبى الطيب من يطرق الباب.. إنه يجيب:

– أنا بكر يا ورد..

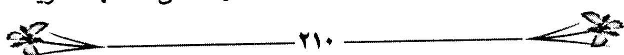
لم يقل أنا بكر يا سيدتى.. والمعنى مقصود!

ويصيح ديك الجن:

– أرأيت أيتها الكاذبة الملعونة؟!.. إنه يناديك باسمك.. لقد زعمت أنك لا تعرفين شيئًا عن هذا الأمر.

وتؤكد له ورد وهى باكية: أنا لا أكذب والله.. صدقنى.. إنها خديعة.

ويتدخل سعيد غلام ديك الجن.. فينحيه ويلقيه أرضًا.. وينزع سيفه من غمده ويهوى عليها به.. فتسقط صريعة فى دمائها الشريفة.



ويصرخ ديك الجن:

ليتنى لم أكن لعطفك نلتُ　　وإلى ذلك الوصال وصلتُ

فالذى مِنّى اشتملت عليه　　العار ما قد عليه اشتملتُ

قال ذو الجهل قد حلُمت ولا أعلم　　.. أنى حلُمت حتى جهلتُ

سوف آسى طول الحياة وأبكيك　　على ما فعلت لا ما فعلتُ

لائم لى بجهله.. ولماذا　　أنا وحدى أحببتُ ثم قتلتُ

ويسأله غلامه: ماذا فعلت يا سيدى؟

فيجيب: لقد غسلت عارى بسيفى يا سعيد.. لقد شفيت غليلى.. وسوف أخرج للناس معلنًا ذلك.

خنت سرى مواتيه　　والمنايا معاديهْ

أيها القلب لا تعدْ　　لهوى البيض ثانيهْ

ليس برق يكون أخلبَ من برق غانيهْ

خنت سرى ولم أخنك.. فموتى علانيهْ

ولنتوقف قليلاً أمام هذه المأساة.. كما توقف الكثيرون قبلنا.. لقد وصفه البعض بأنه عطيل العرب.. وورد مثل ديدمونة البريئة.. وأبو الطيب أشبه بـ«ياجو» ذلك الشرير الذى نسج خيوط التآمر.

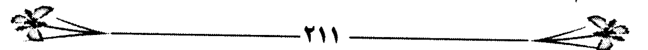
ومن هنا كانت المأساة واحدة من قمم الدراما العربية..

ليته ما سافر ورحل إلى سلمية.

وليته استوثق من الوشاية.

لكن تطرفه الشديد هو الذى حدا به إلى تصديق ما يقال وما يشاع.. لقد أعمته الغيرة.. فاستجاب للهواجس والأوهام.

ألم تكن تستطيع أن تتحرى الأمر يا ديك الجن؟!



(٥)

ويعتكف ديك الجن فى بيته حزينًا على مصيره..

أما أبو الطيب فقد فضل أن يبيع غلامه بكرًا إلى أحد التجار.. ويتخلص منه.. ثم ينطلق إلى ديك الجن يواسيه فى محنته.. ويترك له بعض المال.

لقد تحقق هدف أبى الطيب.

ترى هل وصلنا إلى آخر أوراق المأساة؟

إن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد.. فقد ظل الفتى يعذبه ضميره.. لا ينام الليل ولا يغمض له جفن.. إنه لا ينسى طهارة ونقاء وصفاء سيدته ورد.

أراد الفتى أن ينزل عن كاهله هذا العبء الثقيل.

دخل على سيده التاجر.. وقص عليه قصته.

ولم ينم التاجر ليلته.. بل انطلق يرحل إلى حمص حيث ديك الجن.. ويخبره بحقيقة الأمر.

ويدرك ديك الجن فى الوقت الضائع ما جنته يداه.

لقد ظلم وردًا.. واتهمها ظلمًا بالخيانة..

لكن ماذا يمكنه أن يفعل الآن.. كيف يعيد وردًا إلى الحياة؟!. إنه شىء مستحيل.

ويسرع ديك الجن إلى قبر ورد.. يحفره بأظفاره ويأخذ بعضًا من رفات جسدها الطاهر ليصنع منه كأسًا يشرب بها طوال حياته.

ويظل يبكى ويبكى.



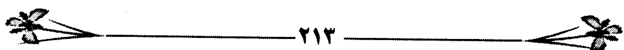
ويظل يندم ويندم بلا جدوى.

يا طلعة طلع الحِمام عليها ... وجنى لها ثمر الردى بيديها
رويتُ من دمها الثرى ولطالما ... روَّى الهوى شفتَّى من شفتيها
قد بات سيفى فى مجال وشاحها ... ومدامعى تجرى على خديها
فوحقِّ نعليها وما وطئ الحصى ... شىء أعز علىَّ من نعليها
ما كان قتليها لأنى لم أكن ... أبكى إذا سقط الغبار عليها
لكن ضننت على العيون بحسنها ... وأنفت من نظر الحسود إليها

ويمرغ وجهه فى تراب قبرها.. ويشرب بكأس رفاتها.. فيسكر حتى الثمالة ثم يفيق مرة أخرى ليرثيها بشعره:

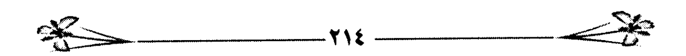
أساكنَ حفرةٍ وقرار لحدٍ ... مفارقَ خُلةٍ من بعد عهدِ
أجبنى إن قدرت على جوابى ... بحق الود.. كيف ظَلِلتَ بعدى؟
وأين حللتَ بعد حلول قلبى ... وأحشائى وأضلاعى وكِبْدى؟
أما والله قد عانيت وجدى ... إذا استعبرتُ فى الظلمات وحدى
ويعذلنى السفيه على بكائى ... كأنى مبتلى بالحزن وحدى
يقول قتلتها سفهًا وجهلاً ... وتبكيها بكاء.. ليس يُجدى
كصياد الطيور له انتحاب ... عليها وهو يذبحها بحدٍّ..

ويظل مغشيًّا عليه لا يفيق إلا على أبيات جديدة يندم فيها.. ويرثى بها وردا.. وكان قومه يدركونه ويأتون له بالطعام فلا يأكل.. حتى جاءوه يومًا وهو فى آخر لحظاته فسمعوه يقول أبياته الأخيرة:

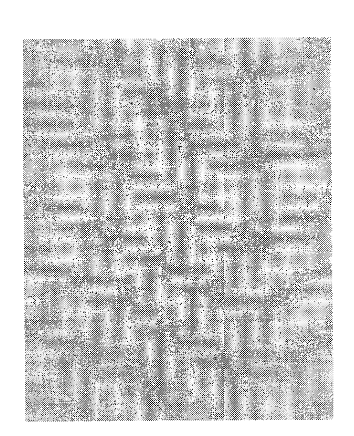



عهدى به ميتًا كأحسن نائم والحزن يسفح عبرتى فى نحره
لو كان يدرى الميتُ ماذا بعده بالحى.. حل.. بكى له فى قبره
غُصص تكاد تفيض منها نفسه ويكاد يخرج قلبه من صدره

ويسلم ديك الجن روحه إلى بارئها نادمًا حيث لا يجدى الندم.



الفهـرس




نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع